
روايات مصرية للجيب
قصاصات
سافاري
30
Looloo
www.dvd4arab.com
د. أحمد خالد توفيق



(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سافرية) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لاتنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لا يمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون) ..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

★ ★ ★

حقاً إنني أعيش في زمن أسود ..

الكلمة الطيبة لا تجد من يسمعها ..

الجبهة الصافية تفضح الخيانة ..

والذى ما زال يضحك ..

لم يسمع بعد بالنبأ الرهيب ..

....

أى زمن هذا ؟

برتولت بريخت

Bertolt Brecht

(شاعر وكاتب مسرحى ألمانى)

1 ـ لم لا نجرب ؟

فى السابعة مساء ذلك اليوم استدعانى المدير إلى مكتبه ..

لا أعرف .. فى الحقيقة كنت أخشى ذلك فى السابق ، لكن فترة الملل التى شعرت بها ، والتى انتهت بحادث فقد الجنين جعلتنى أتوق إلى استدعاء مماثل ...

كانت (برنادت) قد استردت صحتها ، وعلاقاتنا صارت إلى أفضل .. لكنى كنت بعد قلقًا بسبب احتمال أن تشتعل الجذوة من جديد .. إن الخلافات كالأعاصير تأتى .. تأخذ وقتها ثم تذهب .. لا أحد يعرف كيف ولا لماذا تأتى .. لا أحد يعرف متى ترحل .. ولو استطاع العلماء معرفة الأسباب التى تؤدى للأعاصير لصار الزواج جنة ..

كانت تتعامل بشىء من الأسى لأنها لم تمنحنى طفلاً .. وكانت تعتقد أننى بوصفى شرقيًا أتحرق لهذا بشدة .. لكنى كنت واضحًا فى هذه النقطة .. دعى كل شىء يمض كما هو .. لم تنته حياتنا بعد .. ربما ننجب دستة من الأطفال ، وربما يصير أحدهم رئيس (كولومبيا) أو رئيس لجنة الأوسكار أو أهم داعية فى (ترينداد) .. كل شىء ممكن والغد مفعم بالوعود ..

أقول إذن إننى اتجهت إلى مكتب (بارتلبيه) وفى صدرى ملايين الآمال ..

أتمنى ـ وليس شيء عسيرًا على الله ـ أن أجد فى مكتبه عالمًا هولنديًا منتفخ الأوداج عصبيًا ، ترتعش يداه بلا توقف .. فيخبرنى (بارتلبيه) أن هذا هو البروفيسور (فان هاوزن) مثلاً ، وهو يريد تجربة جهازه الجديد الذى يحقق الأحلام .. وهكذا تبدأ مغامرة جديدة .. سوف أتعـ ...

هذا (باركر) !

نعم .. أنا أحب المغامرة لكن ليس إلى هذا الحد .. نائب المدير البريطانى الشرس يقف أمام المدخل ويرمقنى فى صرامة .. إنه من الوجوه البسيطة جدًا فى (سافارى) والتى لا تحتاج لتعقيد فى التعامل .. مثل (ليفى) و(هيلجا) .. يجب أن أكون وغدًا مع الأول .. ويجب أن أكون باردًا سمجًا مع الثانية .. أما الثالث ففر منه فرارك من المجذوم لو استطعت .. إنه المشاكل تمشى على قدمين ..

قال لى فى غيظ (وهو مغتاظ دائمًا على فكرة) :

ـ « صباح الخير يا دكتور .. لاحظ أننى لم أعاقبك على ما بدر منك البارحة .. »

حاولت التذكر .. ماذا حدث البارحة ؟ لا بد أنه يتكلم عن نوبتجية جراحة المخ والأعصاب .. قلت في ارتباك :

ـ « لقد بدأت ثم أصابني ذلك الصداع .. أنت تعرف .. »

قال في صرامة :

ـ « وبعد ذلك ؟ هل لديك تفسير ؟ »

ما معنى هذا ؟ هناك جاسوس بيننا ينقل كل شيء لهذا الوغد .. قلت في ضيق :

ـ « ذلك الطبيب النمساوي قد استفزني .. تلك المشاجرة هو من بدأها لا أنا .. »

كنا نتكلم بينما السكرتيرة ترمقنا في اهتمام ، وقد وقفت على الباب .. في عينيها رسالة ما لا أستوعبها جيدًا لكنها مهمة جدًا .. قال لي وهو يبتعد :

ـ « فلتنه لقاء المدير أولاً ثم تعال لنسوي هذه الأمور .. »

وابتعد وهو يعوي كالذئاب والزبد يسيل من شدقيه ..

قالت لي السكرتيرة بعدما تأكدت من أنه غاب في الأفق :

ـ « يا لك من أحمق .. لا تؤاخذني يا دكتور .. لكنك أحمق

فعلاً .. إنه يستعمل هذه الطريقة دائمًا .. يسألك أسئلة توحى بأنه يعرف الكثير ، فتدافع عن نفسك .. هكذا يكتشف كل شيء .. ثم تتصرف أنت متسائلاً فى حماقة : من الوغد الذى نقل له كل هـذه الأسرار ؟ ثق أنه لا يعـرف حرفًا عن مشاجرة أمـس ولا قسم جراحة المخ والأعصاب ، لكنك قدمت له وقود النار ! »

يا للوغد ! وشعرت بأن أذنى تحمران خجلاً .. لابد أنهمـا تشبهان الطماطم الآن .. مشكلتى هى تلك الاندفاع المتهور .. أتكلم وأفعل ثم أفكر .. على كل حال لن أكون الحمار الأخير فى هذا العالم ..

قلت لها محاولاً تغيير الموضوع :

ـ « ماذا عن (لويس السادس عشر) ؟ »

ـ « ينتظرك ومعه زائر شديد الأهمية .. »

هكذا توكلت على الله ووقفت على الباب ، وأخذت شهيقًا عميقًا .. يـا رب .. أرسل لى عالمًـا هولنديًا مجنونًـا اسمه (فان هاوزن) يريد تجربـة جهازه الجديـد الـذى يحقـق الأحلام .. لا ترسل لى (باركر) ...

* * *

أمام المدير الجالس فى مكتبه وجدت ذلك الرجل منتفخ الأوداج العصبى ، الذى ترتعش يداه بلا توقف ..

بالإنجليزية قال (بارتلييه) الذى ازداد بدانة فى الفترة الأخيرة :

ـ « (علاء) .. أقدم لك البروفسور الهولندى .... »

قلت فى لهفة :

ـ « (فان هاوزن) ؟؟ »

تبادل الرجلان النظر ثم قال المدير فى شىء من العتاب :

ـ « (بيتر ترامب) .. إنه ضيفنا هنا ، وأريد أن تعنى به طوال زيارته .. أنت تعرف أننى أثق بك فى هذه الأمور .. أنا أبحث له عن سكرتارية وجندى مراسلة ومترجم (إنجليزية ـ فرنسية) وصديق مخلص .. وأخشى أن هذه المهمات ستقع كلها على عاتقك .. »

حقًا لم تكن هذه أول مرة .. لحسن الحظ أنه لا يبحث له عن أم رءوم أو زوجة ..

سألت بصوت أحاول أن أخفى رجفته :

ـ « هل البروفسور طبيب ؟ »

قال (بارتلبيه) فى انبهار :

- « هو مزيج من طبيب وعالم نفس وطبيب أمراض عصبية وفيزيائى .. إنه من تلك الشخصيات الفريدة التى لا يمنحها الزمن مرتين .. »

قلت بمزيد من اللهفة :

- « وهو راغب فى تجربة جهاز أحلام ؟ »

هنا من جديد تبادل الرجلان النظرات ثم انفجرا ضاحكين ..

للمرة الأولى تكلم الهولندى بصوت عميق رخيم مؤثر .. قال :

- « أخشى يا دكتور أن لديك ولعًا شديدًا باشتكمال القصص بعد قراءة أول شفحة منها .. »

كان ككل الهولنديين لا ينطقون (السين) تقريبًا بل يحيلونها إلى (شين) .. لهذا سأصحح كلماته تلقائيًا أثناء السرد .. كى لا أعذبكم كما عذبنا ..

وقال المدير :

- « (علاء) .. كف عن ادعاء الذكاء من فضلك .. هذه الطريقة توحى بالإهانة .. لو أصغيت بعض الوقت لعرفت كل شىء .. »

هززت رأسى بمعنى أننى راغب حقًا فى الفهم ، لكنى قلت

لنفسي إنه إذا وصل حدسي إلى هذا الحد فإنه لا يوجد ما يمنع أن يستمر إلى النهاية .. إن الأمور تتحسن .. أعرف هذا .. أثق به ..

قال لي الهولندي وهو يخرج مجموعة من الأوراق :

ـ « كخطوة أولى يجب أن توقع لي على موافقتك الكاملة على التجربة .. ستكون جزءًا أساسيًا منها ، ولسوف أعتمد على شهادتك .. »

بحماسة أخرجت قلمي من جيب المعطف ، ومددت يدي أتناول الأوراق .. فقال المدير محتجًا :

ـ « من دون أن تعرف نوعية التجربة ؟ ماذا لو اتضح أنه يريد انتزاع عينيك ووضعهما في محلول حمضي ، مع إدخال سلك كهربي في أذنك ؟ »

قلت بلا مبالاة :

ـ « لا أعتقد هذا يا سيدي .. نحن نتكلم عن آلة أحلام .. لا يوجد خطر في هذا .. »

من جديد تبادل الرجلان النظر .. هذه المرة لم يعد من موضع للضحك بل الذهول .. هذا الطبيب الشاب الملتحي مخبول حتمًا ..

قال الهولندى وهو يناولنى الأوراق :

- « على كل حال لم تبتعد عن الحقيقة كثيرًا .. لكنها آلة تاريخ لا أحلام لو شئت الدقة .. »

- « هل تعنى آلة الزمن ؟ »

هنا بنفاد صبر قال (بارتلييه) وهو يتناول الأوراق فيضعها تحت ملف على مكتبه :

- « بعد إذنك يا بروفسور .. سنؤجل موضوع التوقيع هذا إلى ما بعد تقديم محاضرتك غدًا .. لا أعرف كم من الأطباء سيكون موجودًا لكنى متأكد من أن د. (عبد العظيم) على الأقل سيحضرها بالأمر .. »

ثم نظر لى وقال :

- « فى هذه المحاضرة ستعرف كل شىء وستشفى هوايتك فى استباق المعلومات .. »

ثم عقد أنامله وقال بلهجة درامية من طراز (النهاية) :

- « الآن .. هل تسمح لنا ؟ »

هززت رأسى واتجهت إلى الباب .. هنا سمعت صوته ينادينى :

- « التاسعة صباحًا ! لا تنس ! »

ثم تذكر شيئًا فقال :

ـ « (علاء) .. سنكون شاكرين لو قمت بحلاقة شعرك من أجل التجربة .. »

ـ « هل تعنى تقصير الشعر ؟ »

ـ « لا .. أتحدث عن رأس صلعاء تمامًا .. لا تنس أن هذه موضة الـ Skinhead التى يحبها الشباب .. سيبدو منظرك رائعًا .. إن الرأس الحليقة توحى بالرجولة وقوة الشكيمة !! »

* * *

2- لم لا نجرب ؟ (أم قلتها من قبل ؟)

كان إعداد المحاضرة فى غاية السوء .. لقد فقد الرجل بعض أوراقه وكان ترتيب الشرائح خطأ .. كما أن جهاز العرض المتصل بالحاسب الآلى أصابه عته مؤقت ، وكان علينا أن نطلب رأى (جرترود) الزنجية الأمريكية التى يعاملونها كخبير كمبيوتر حين لا يجدون واحدًا ..

كان عدد الحاضرين لا يتجاوز العشرين ، لذا بدوا كنقود فى جيب موظف فى نهاية الشهر .. خاصة فى قاعة مجهزة واسعة مثل قاعة (الأوديتوريام) الفاخرة .. والسبب على كل حال ليس أن الرجل ممل كالجحيم .. لم يأت أحد ليعرف هذا .. كان السبب هو أنه لم يتم أى تنويه عن الندوة .. وكان من الصعب الآن أن تجد من غرق فى الدماء فى قسم الجراحة ، ومن غرق فى عواء الأطفال فى قسم الأطفال ، ومن يحاول الآن تحرير رأس الطفل من الحبل السرى فى قاعة التوليد .. دعك ممن تسللوا للقبو ليدخنوا سرًا ، ومن يتظاهرون بأنهم لم يسمعوا عن المحاضرة ..

كان (بارتلييه) بادى العصبية وكذلك الهولندى .. لكن الأمور بدأت تستقر على كل حال .. لم تكن (برنادت) هنا ولا (بسلم) ..

وقد جلست في المقاعد الأمامية واحتللت بذراعي ثلاثة مقاعد أخرى ووضعت ساقًا على ساق .. أريد أن أعرف ما هذا الذي يريدون مني تجربته لكني لست مهتمًا إلى هذا الحد .. المهم أنه شيء جديد ..

جديييييد !

بعد التقديم الممل المعروف ، تقدم (بيتر ترامب) الذي أوحى التقديم لنا بأنه موشك على التحليق بجناحيه أو أن ينبعث البرق من أذنيه .. تقدم خلف المنصة ، وقال بلهجته الإنجليزية الملوثة بالهولندية إلى حد لا يوصف :

- « تعرفون أنني قضيت أكثر حياتي في دراسة المخ البشري .. درست النفس البشرية ودرست تشريح المخ ووظائفه .. هناك من يدرسون قواعد اللغة وهناك من يكتبون الشعر .. أنا فعلت الاثنين .. درست الأداة وما تنتجه الأداة ، ولا أبالغ إذا قلت إنني فخور بما قمت به .. وقد وجدت أن لدي حلمًا لكني من أجل تحقيقه يجب أن أعرف الفيزياء جيدًا لهذا قضيت عشرة أعوام من عمري في دراسة الفيزياء ، وبرغم هذا استعنت بمجموعة من أصدقائي علماء الفيزياء لنعرف ما عرفناه .. »

تعالى صوت (بياتريس) الطبيبة الفرنسية التى تعمل كمترجمة متطوعة ، وهى تنقل للجالسين ما قاله بالفرنسية .. ترجمة رديئة جداً لكنها تفى بالغرض .. تذكرت باسماً الجنرال الأمريكى (ماك آرثر) حين كان ـ وسط أحد خطاباته ـ يحكى نكتة طويلة لبعض المواطنين الفلبينيين ، ثم طلب من المترجم أن ينقلها لهم .. شرح المترجم النكتة فى ثلاث أو أربع كلمات فانفجر الفلبينيون ضحكاً .. بعد الخطاب سأل الجنرال المترجم عن الأسلوب العبقرى الذى لخص به هذه النكتة الطويلة ، فقال المترجم فى أدب :

ـ « كانت نكتة أمريكية سخيفة وتوقعت أنهم لن يفهموها ، لذا قلت لهم : لقد قال الجنرال نكتة فأرجو أن تضحكوا بشدة ! »

كانت (بياتريس) تقوم بمهمة شبيهة بهذه ..

ضغط الهولندى على الفأرة لتظهر أول شريحة على الشاشة .. كانت تمثل طفلاً يخرج لسانه لنا وتعالت بضع ضحكات .. قال فى ضيق :

ـ « لا .. هذا خطأ .. الترتيب خطأ .. »

وبدأ يحاول إعادة ترتيب الشرائح على جهاز الكمبيوتر .. وساد صمت تتخلله تعليقات هامسة ..

ـ « هذا الترتيب صحيح .. هذه الشريحة ترينا ... »

كانت الشريحة تمثل طفلة في الرابعة تجلس على المرحاض وهى تحتضن دميتها وتنظر لنا في تحد ...

ـ « لا .. آسف .. لحظة من فضلكم .. »

وعاد يرتب الشرائح .. وتعالت الضحكات أكثر ..

قلت لنفسي : هذا الرجل يفوق تصوراتى .. عالم شارد الذهن على قدر لابأس به من (الدهولة) .. ليس أجمل من هذا .. لكن هل أثق في هذا الرجل إلى حد أن أسمح له بالتجربة على ؟ آسف يا دكتور (علاء) .. كنت أحسب أن هذا السلك الذى تمسته في أذنك خال من الكهرباء .. هذا خلل بسيط .. الخطأ شيمة بشرية والمغفرة شيمة ربانية .. لا تخف .. سيصيبك بعض العته والتخلف العقلى لكنك حى ترزق .. اطمئن !

في النهاية بدأ العرض ينتظم ..

في اللقطة الأولى رأينا رجلاً كئيب المنظر يبدو كمدير على المعاش في مصلحة حكومية ما .. على حين قال الهولندى :

ـ « (كارل جوستاف يانج Jung) .. عالم النفس السويسرى العظيم .. الرجل الذى درس أبحاث (فرويد Frued) وتحمس له ،

ثم بدأ يدرك أن الاضطرابات الجنسية لا تفسر كل شيء في الحياة .. هكذا تمرد على أستاذه وصارت له مدرسته الخاصة .. (يانج) الذى دخل حياتنا بلفظة (اللاوعى الجمعى) .. والذى صك مصطلحات طبية شهيرة مثل الشخصية الانطوائية Enteroverted والشخصية الانفتاحية Exteroverted .. وكما نعرف فإن علم النفس هو أقرب العلوم الطبية إلى أن يكون أدبًا .. لهذا زرع فكرة اللاوعى الجمعى Collective Unconscious لدى كل من عاصره .. كما أنه أول من ابتكر طريقة التداعى الحر فى الكلمات .. طريقة التحليل النفسى التى يقول فيها الطبيب كلمة فيرد المريض بأول كلمة تخطر بذهنه .. »

ثم انتقل إلى الشريحة الأخرى .. فيها تظهر مجموعة من البدائيين يقتلون ديناصورًا .. هذا الغبى يقع فى ذات الخطأ الشهير .. الديناصورات لم تتواجد مع البشر قط ..

قال الرجل وهو يشير للشريحة بمؤشر ضوئى ، ويده ترتجف بشكل غير مسبوق :

- « هل الخبرات الماضية تحفر فينا ؟ هل تنتقل عبر الأجيال ؟ هذا هو ما حاول (يانج) أن يبرهن عنه .. لقد وجد أن أذهاننا تحوى تراثًا عتيدًا من الأساطير القديمة

والأديان الوثنية وعادات الرجل البدائى .. كلها موجودة فينا ويمكن بسهولة أن تربطها بتطور العصاب والأمراض النفسية .. »

هنا رفع طبيب إيرانى يده .. بدا التذمر على الهولندى وأشار (بارتلبيه) بيده له إشارة خفية أن ينتظر ، لكنه كان مصراً على أن يلقى سؤاله على أى حال ..

سأل بإنجليزية جيدة :

- « هل تعنى سيدى أن خبرة اكتشاف العجلة والنار مازالت موجودة فينا ؟ »

قال د. (ترامب) فى صبر :

- « نعم .. ليس بالضبط .. ليس كمشهد وذكرى محفورة ولكن كخبرة عامة تنتقل من جيل لجيل .. كلنا نخاف الظلام لأنه بالنسبة للرجل البدائى كان يعنى موعد هجوم الدببة والفهود .. كلنا نرى حلم السقوط من حالق .. يقول (يانج) إن هذه ذكرى السقوط الأول من فوق الشجرة التى كان جدنا ينام فوقها .. لم تعد الذكرى موجودة لكن الإيحاء بها قوى .. إنها صور بدائية هى ما نطلق عليه القالب Archetype .. »

ثم توالت الشرائح وأغلبها تمثل أشكالاً تخطيطية :

ـ « هكذا يمكن أن نجد لدى كل فرد منا تراثًا هائلاً مما جمعته البشرية كلها .. وهذا الجزء يتحرك نحو تقدم الجنس البشرى ككل .. أى أن كل واحد منا يحمل المجتمع كله فى ذاكرته .. إن جزءًا منى هو (رمبرانت Rembrandt) الرسام العبقرى ، وثمة جزء هو (فان جوخ Van Gogh) .. »

ثم ظهرت صورة للمخ البشرى بينما قال بصوت درامى :

ـ « هذه الخبرات الجمعية محفورة فى مكان ما فى هذا الجهاز الرائع المتقن .. لكن أين ؟ هل فى قشرة المخ أم قرب المهاد التحتى ؟ هل فى الجسم الصنوبرى كما قيل كثيرًا أم أين ؟ »

وظهرت علامة استفهام عملاقة ...

ـ « هذا هو ما حاولت العثور عليه وأعتقد أننى بلغته .. »

ثم ظهر قطب كهربى يتجه نحو صورة المخ .. ليثبت نفسه على قشرة المخ ..

ـ « من هنا يستطيع هذا القطب استعادة كل شىء .. هذا الصندوق الأسود يمكن أن تجده ولن نفرغ محتوياته .. عندها ماذا سنعرف ؟ ماذا سنرى ؟ »

وفى هذه المـرة ظهرت صورتـا الطفلين فـى موضعهمـا الصحيح ..

ـ « هذان الطفلان يكتسبان الخبـرات بسرعـة ، لكنهمـا يعتمدان اعتمادًا كليًا على التراث الذى أخذاه من البشرية .. إنهمـا يهابان الظلمة والنـار والكـلاب والغربـاء .. يأتنسـان بالضحكة .. من أين كسبا هذه الخبرات ؟ »

هتف الإيرانى غير مصدق :

ـ « سيدى .. أنت تتكلم عن شىء غريب .. هل الخبرات التى عرفتها الأم تورث الأطفال فور ولادتهم ؟ »

وتعالت الضحكات .. لكن الهولندى لم يضحك ، وقال :

ـ « لم يتفق الكثيرون مع (يانج) .. لكننا لـن ننسـى أن الخبرات تنتقل جينيًا وبطريقة كيميائية بحتة .. من المصادفة أن الشريحة القادمة تحمل إجابة سؤالك .. هل تعرف هذه الدودة ؟ »

وعلى الشاشـة ظهرت دودة مسطحه تشبه إلى حد مـا الدودة الكبديـة (الفاشيولا Fasciola) .. ولمن لا يعرفـون شكل الدودة الكبدية أقول إنها تبدو كالشبح الذى يظهر فى القصص المصورة مدثرًا بملاءة لها ثقوب عند العينين والفم .. أما من لا يعرفون شكل هذا الشبح فليسمحوا لى ..

ـ « هذه دودة (البلاناريا Blanaria) تلك الدودة المحظوظة التى

تصدر عنهـا مجلة كاملة في الولايات المتحدة اسمها (مختـارات مربى الديدان) .. لقد عانت هذه الدودة التعسة كثيرًا جدًا مـن الحمـاس العلمى لدراستها .. لقد أجرى عليها الأطباء بعض تجارب مثيرة .. ووجدوا أنها قابلة للتعلم .. ليس إلى حد ركوب الدراجة أو إحضار الجريدة ، لكن لدرجـة تحاشـى الأزرار التـى تسبب لها صدمة كهربية وما إلى ذلك .. حسن .. لقد علم الأطباء الجيل الأول من الديدان خبرات شائقة .. بعد هذا مزقـوا الديدان المسكينة شر ممزق .. وحقنوا بمحلول مكون من بقاياها تلك الديدان الأمية التى لم تتعلم بعد .. فمـاذا كـانت النتيجـة ؟ لقد صارت الديدان الجاهلة مثقفة فجأة .. معنى هذا أن عملية التعلم انتقلت بشكل كيميائى إلى الديدان الأمية .. نفس النتيجة حصلوا عليها من إطعام بقايا الديدان المثقفة لتلك الجاهلة(*) .. »

ثم نظر لنا وضـوء العرض يلتمع على عوينلته فتبدو كأنهـا تشع بذاتها :

ـ « هذا هو بيت القصيد .. خبرات الأم وخبرات البشرية كلهـا تنتقل للطفل الرضيع .. إن تقدم البشرية عبر هذه القرون لم يضع هباء .. بل هى خبرة تراكمية تتكدس جيلاً بعد جيل .. »

(*) طبعًا أية معلومة تذكر فى (سفارى) حقيقية ما لم نقل صراحة عكس ذلك .

ثم ظهـرت الشريحة التـالية ، وفيهـا سـاحر من القـرون الوسطى .. ساحر شرير كمـا يبـدو مـن ضحكتـه الخبيثـة .. يقف فى مختبر مظلم تقريبًا ما عدا جثة ممزقة ممددة علـى فراش .. صورة مخيفـة لكنى أعتقد أنه اقتطعها من مجلـة مصورة ما ..

- « كان القدمـاء يتحدثـون عن النكرومانسـى Necromancy أو (استجواب الموتى) .. وهى طريقـة قذرة تجعلك تـرى ما رأوه وتسمع ما سمعوه وتعرف ما عرفـوه .. اليوم نحن نفعل هذا بطريقة علمية بحتـة .. ولـن نجرب علـى الموتـى لكننا سننتزع أسرار الوجدان الجمعى للأحياء .. »

هنا تدخل (جيديون) الذى كان يراقب كل هذا فى صمـت حتى إننى لم ألحظ وجوده .. كان قد وضع ساقًا علـى سـاق وأراح ذراعيه على مقعدين كما فعلت أنا .. وقد قدرت حيـن رأيت وجهه الصارم أن كل شىء لم يرق له :

- « هل تزعم أنك قادر على هذا ؟ »

قال الهولندى فى غموض :

- « نعم .. لهذا جئت هنا .. »

- « وكيـف ؟ »

قال الهولندى وهو يقلب شرائحه تفاديًا لمواجهة العينين :

- « هذا لن أقوله .. لن أذكر عنه حرفًا قبل أن أجرى التجربة وآخذ تقريرًا عنها .. لقد شرحت المبدأ لكن لا تفاصيل من فضلك .. »

قال (بارتلبيه) فى حماس :

- « سيكون هناك محكمون من الوحدة .. ستكون أنت منهم يا دكتور (جيديون) .. »

نهض (جيديون) فى ملل ، واستدار نحونا .. كأنه لا يرغب فى أن يواجه المنصة ، وقال :

- « الحقيقة إن هذه الوحدة اتخذت منهجًا عجيبًا بعض الشىء فى الفترة الماضية .. إنها تقبل قدوم أى حاو يقدم عروضه وترحب به .. هذا كثير .. لقد صارت وحدة (سافارى) هى مأوى من هب ودب من شذاذ الآفاق .. وفى النهاية هذه الأبحاث العلمية المريبة تصدر حاملة اسمنا .. لن تكون نتيجة هذا إلا فقدان مصداقيتنا ، وتحويلنا من علماء إلى حواة .. »

تعالت بعض أصوات التأييد .. أما أنا فلم أحب ما أسمعه .. لقد رأيت كيف يفسح (بارتلييه) صدره لكل صاحب نظرية علمية لايجد مكانًا آخر ، وآخرهم (جيرار لومبان) الذى كان ينادى بأنه لايوجد ثقب أوزون أو هناك ثقب لكنه غير مهم .. لكن هناك منطقًا لابأس به لدى كل منهم ، وكانت تجاربهم رصينة .. لقد اصطدمنا مع شركة الأدوية النصابة التى كانت تروج لدواء مزيف للملاريا ، نحن نصطدم عند الضرورة كذلك ..

قال (بارتلييه) فى وهن :

- « دكتور (جيديون) .. كنت أفضل لو صارحتنى بهذه الآراء بشكل منفرد .. نحن لانشعل ثورة هنا ولكننا نحاول أن نشرح وجهة نظر البروفسور (ترامب) .. لا أكثر ولا أقل .. »

وقال (ترامب) الذى بدأ يفهم أنه أهين :

- « حين وقفت هنا ، كنت أعتقد أننى سأسمع جدلاً علميًا رصينًا يختلف عن أسلوب عمال الموانى فى الكلام .. لو كانت

ألفاظ (هب وبب) و(حاو) تتكرر كثيرًا فإنني قلق على مستقبل هذه الوحدة .. »

وهذا هو الخطأ الشائع .. لا توجد طريقة للرد على ألفاظ سوقية إلا بألفاظ سوقية .. ولئن كان (جيديون) قد ذكر لفظة (حاو) فهو قد تكلم عن (عمال المواني) .. أنا أعرف عمال موان مهذبين كثيرين ، لكن يبدو أن عمالهم يكونون فظين دومًا ثملين في كل الأحوال ..

وهكذا اشتعل الجدل بين الرجلين العظيمين .. تصاعد ليصل إلى مستوى رائع .. وجلست أرمق كل هذا باستمتاع .. كنت أهوى عروض المصارعة الحرة في التليفزيون طيلة حياتي ، ولو أن أحد الرجلين لكم الآخر في أنفه لبلغت سعادتي قمتها .. لابد أن (فرويد) و(يانج) خاضا حروبًا مماثلة وهما يشرحان نظرياتهما الصادمة .. الأول يشرح لعلماء (زيورخ) الوقورين المتزمتين كيف أن الطفل الرضيع يملك غريزة جنسية ، والثاني يشرح لنفس العلماء أننا نحتفظ في مخنا بما عرفه أجدادنا من آلاف السنين ..

فى النهاية نجحوا فى تهدئة النفوس وساد الصمت .. للأسف قبل أن أرضى نشوتى القتالية .. وقبل أن ينزع أى منهما حزامه ليلسع به الآخر ..

لكنى على الأقل عرفت جزءًا مما ينتظرنى ..

* * *

3ـ أقطاب .. كاسيت .. أشياء أخرى ..

ـ « كالعادة تضع نفسك فى كل موقف مريب غير مضمون .. »

ـ « هذه عادة لدى .. كل ما هو غريب يهدم الرتابة .. »

ـ « تجربة السقوط تحت قطار غريبة بما يكفى .. لماذا لا تجرب ذلك ؟ »

ـ « سأجرب فقط لو وجدت أن التطوع لهذه التجارب لا يحقق الإثارة المرجوة .. »

ـ « تجارب المخ هذه لا تعد بخير كثير .. تذكر ذلك المخبول (فرانسيس دوبون) .. وتجربته المحرمة .. »

ابتلعت ريقى .. هذه من الذكريات القاسية بالنسبة لى .. لأسباب قوية اضطررت لقتل شخص ، لكن هذا كان دفاعًا عن النفس .. لقد كانت نهايتى دانية لو لم أفعل .. لكنى لم أستطع قط أن أفخر بهذا .. كل أبطال القصص لا يقتلون أبدًا ، وهذا من الأسباب التى تجعلنى لا أصلح بطلاً للقصص ..

وتأملت وجهى بعد حلاقة الشعر التى أجريتها أمس .. أبدو

شرسًا ووغدًا فلا ينقصنى إلا بعض الوشم على الذراعين العاريتين لأبدو كأحد النازيين الجدد أو مدمنى المخدرات فى الأفلام الأمريكية .. من الغريب أن بعض النـــاس يبدون وديعى المنظر بعد إزالة شعر رأسهم ..

أبدو شرسًا ووغدًا .. هذا رائع ..

قلت لـ (برنادت) وأنا أحكم ربطة عنقى أمام المرآة :

- « مما يسعد قلب أى رجل أن يعرف أن امرأته قلقة بشأنه .. أذكر يوم قررت تسلق (كليمنجارو Kilimanjaro) إننى دهشت لأنك كنت مصرة على أن أفعل هذا .. لكنى أفهم هذا الآن على ضوء (الظاهرة) .. أكره الزوجة التى تقول لزوجها : هلم أيها الرعديد .. لم لا تثب من القطار المسرع ؟ كيف تعتبر نفسك رجلاً من دون هذا ؟ »

ابتسمت بخبث ورسمت تلك (التشنيكة) الفاتنة على أنفها وهى تمشط شعرها أمام المرآة مستغلة الفجوة جوار كتفى :

- « لاحظ أننى أوصيتك بالسقوط تحت قطار مسرع من دقيقة واحدة .. »

ثم نظرت لانعكاسها فى المرآة منبهرة وهتفت :

- « هذه هى الروعة التى لايستحقها شخص فان مثلك .. الحلم الكندى الذى قرر أن يمشى على الأرض .. »

- « هذا الحلم الكندى قد فقد طفلاً منذ أسابيع .. »

- « لكنه ما زال حلمًا .. هل ترى الروعة ؟! »

إنها رائقة المزاج اليوم .. هذا يروق لى .. لقد مررنا بأيام سود كقلب الكافر ..

ثم إنها اتجهت للباب وفتحته ، وقالت :

- « لاحظ أننى لن أستطيع أن أكون هناك لأمسك بيدك وأنت تحتضر .. لهذا أرجوك ألا تموت اليوم .. تخيل أن تموت بين ذراعى (بارتلبيه) المكتنزتين المبتلتين بالعرق .. »

تخيلت الفكرة وارتجفت لها .. لذا وعدتها بأننى سأحاول ما أستطيع ..

* * *

هناك فى تلك الغرفة الواسعة المخصصة للاجتماعات جوار مكتب المدير ، لم يكن هناك الكثيرون .. فقط الهولندى والمدير وممرضة حسناء لا أذكر اسمها .. دعك من سكرتيرة (بارتلبيه) طبعًا .. الغرفة أصلاً خاوية فيها منضدة صغيرة بحجم هذا الكتيب الذى بين يديك .. وهناك نافذة عملاقة عليها ستائر من الطراز الذى يطلقون عليه (فينيقى) .. هناك مقعد كمقاعد أطباء الأسنان .. ثمة ثلاثة أجهزة كمبيوتر كلها مفتوح ، وشىء يشبه مصدر الكهرباء غير المتقطع UPS .. لو كنت لم تره يمكنك تخيل جهاز (سايكلوترون Cyclotron) صغير جدًا .. ماذا ؟ لم تر (السايكلوترون) أيضًا ؟ ولا أنا .. لكن الأمر متروك لخيالك إذن فقد استنفدت ما لدى من كلمات !

حول كل هذا ومنه وإليه توجد ألعن شبكة من الأسلاك يمكن تخيلها .. أنا لم أر غرفة المولدات فى السد العالى لكنها لن تختلف عن هذا كثيرًا .. أسلاك لا تعرف متى بدأت ولا كيف تنتهى .. تتابع السلك منها فتجد أنه تحول إلى سلكين ينتهى كل منهما فى السلك الأول بمعجزة ما ..

ومن جديد أخرج د. (ترامب) مجموعة الأوراق وطلب منى أن أمهرها بتوقيعى . فترددت .. منظر هذه الأسلاك الرهيبة الملتفة كأنها ثعابيين (بوا Boa) تريد خنقى جعلنى أتردد ألف مرة ..

قلت له فى كياسة :

ـ « برغم حضور ندوتك أمس لم أستطع فهم شىء .. سمعت أشياء أعرفها من قبل عن الوجدان الجمعى وكل هذا ، لكن لم أعرف ما تنتويه بالضبط .. »

وقف الهولندى فى وسط الغرفة فى وقار وأشار إلى سكرتيرة الوحدة كى تشغل جهاز تسجيل عملاقًا ..

قال بصوت جهورى :

ـ « كل ما هو مطلوب منك أن تتلقى بثًا بالصور من عقل أحدهم .. هذا البث سينتقل مباشرة إلى عقلك ، ولسوف يكون عليك أن تتكلم وتسجل ما يقال .. طريقة الانتقال هى تلك الأقطاب التى ستوضع على رأسك .. لهذا طلبنا منك أن تزيل شعرك لنقلل المقاومة الكهربية قدر الإمكان .. سوف

يصلك سيل من الصور والذكريات ، وكل ما عليك هو أن تسجلها .. »

هنا قال (بارتلبيه) فى حذر :

- « يجب أن أذكر لك شيئاً هنا .. لاتنس أن سيل الصور والذكريات سيخرج منك إلى رأس الشخص الآخر .. »

توترت .. كله إلا هذا ..

قلت فى عصبية وأنا انظر إلى الأوراق التى وقعتها :

- « أما هذا فلا .. إن أسرارى هى أسرارى .. لا أسمح بخروجها لأى شخص .. حتى لو بدت الفكرة خيالية فلن أسمح بمجرد احتمال أن يحدث هذا ! »

رفع الهولندى يده بحزم وقال :

- « نحن لانتحدث عن الذكريات الشخصية هنا ولكن عن ذكريات الجنس البشرى ككل .. ذكرياتك كمصرى .. كعربى .. الوجدان الجمعى الذى نقل إليك عبر الأجيال ، فلاتتخيل أننا سنعرف شيئاً عن رقم بطاقتك الائتمانية

أو رصيدك فى المصرف أو مـا قلتـه لزوجتك أمـس .. هذه هى الأسرار التى لانستطيع معرفتها .. دعـك مـن أن عليك أن تثق بى لأن العقد يتضمن مليون دولار تعويضًا أدفعه أنا فى حالة إذاعة أية معلومة لا تقبل إذاعتهـا .. وأنـا لا أنـوى أن أقضى ما بقى من حياتى فى حـرب مـع المحـامين أو أن أبيع دارى الجميلة فى (أمستردام) .. »

بدا لى الأمر مقنعًا ..

قلت له وأنا أسترخى قليلاً :

ـ « ليكن .. والآن من هو الشخص الآخر المحظوظ الذى سأعرف ذكرياته التافهة ، ويعرف هو ذكرياتى الثمينة ؟ »

كرر الهولندى فى عصبية :

ـ « قلت لك إنا لانتعامل مع ذكرياتك .. هذه لاتهم أحدًا .. ما نريده هو تراثك الجمعى .. »

أعدت سؤالى :

ـ « ليكن .. من الذى سأعرف تراثه الجمعى ؟ »

قال (بارتلييه) وهو يوقع بعض الأوراق بدوره :

- « لن تعرفه .. آسف أن أقول هذا لكن هذا يفسد التجربة .. لقد اشترط د. (ترامب) هذا .. قال إنه لو عرفت من تتبادل الخبرات معه فإن هذا يعطى أفكارك اتجاهًا مسبقًا يتفق مع ما تعرفه عنه .. هذه من التجارب ثنائية التعمية Double blind لو كنت تفضل هذا .. »

- « وأين هو إذن ؟ »

أشار الهولندى إلى كابل غليظ يجرى على الأرض وعاد يواصل كلامه فقلت فى غيظ :

- « لا تقل إننى سأعرف خبرات كابل كهربى .. »

- « لا .. الكابل يمتد إلى غرفة مجاورة يجلس فيها موضوعنا .. هكذا لن تلتقيا .. فقط بعد التجربة .. »

ثم قال بلهجة عملية مصفقًا بيديه :

- « والآن .. فلنبدأ .. »

هكذا راحت الممرضة التى اتضح أنها مارست العمل من قبل ، تثبت الأقطاب على رأسى .. وهى عملية سهلة لأنها

تثبت شفاطات ملوثة بكريم K-Y إلى رأسى الأصلع كما تثبت تلك السمكة ممصاتها إلى زجاج حوض السمك .. هذا المشهد ـ السمكة لا أنا ـ هو ما ألهم (باراكير) العظيم فكرة شفط عدسة العين المعتمة ..

أخذت شهيقًا عميقًا على حين ثبت (ترامب) ميكروفونًا صغيرًا إلى جوار فمى وطلب منى أن أسترخى على المقعد الشبيه بمقعد طبيب الأسنان .. وأنا أمقت هذا المقعد لأنه يوحى بطقوس مخيفة غامضة .. نوع من القرابين الوثنية فى طقوس عبادة (عشتروت) .. يوحى بانعدام الحيلة والاستسلام المطلق لما هو آت ..

فجأة شىء ينغرس فى معصمى فأنظر له فى رعب ..

هذه إبرة .. لقد حقنت !

قلت للهولندى فى ضيق :

ـ « هل سنبدأ حقن عقارات الهلوسة ؟ قلت إنك ستعتمد فقط على ... »

قال وصوته يزداد عمقًا .. كأنه نغمة (أوكتاف) خفيضة ..

- « هذا (دورميكام Dormicum) ليس إلا .. لا يجب أن تظل واعيًا .. سندخلك فى نوع من السنة .. لا توجد وسيلة أخرى .. إن الوعى يعوق انتقال الخبرات .. إن الـ ..... »

* * *

4 ـ قصاصات : مهمة فى الفجر ..

إلى أين ؟ ما هذا الذى أراه ؟

* * *

الخامس والعشرون من فبراير عام 1964 .. سيظل هذا اليوم فى ذاكرة أهلى كثيرًا ..

ترجلت من السيارة وأخذت شهيقًا عميقًا ..

كنت أشعر بشيئين .. الخوف والرهبة .. وفخر لاحد له ..

هواء الفجر البارد وتلك الرائحة لنهار لم يتلوث بعد .. سوف تطلع الشمس بعد قليل لكنى أعرف جيدًا أن احتمالات رؤيتى لها شبه معدومة ..

مشيت فى ذلك الممر الطويل وحدى .. أصغى للأصوات القادمة من هناك .. تلك الأصوات الكريهة التى لم أعد أطيقها .. سوف يأتى شخص بعدى ليفعل كما فعلت أو ما هو أفضل .. لكنى مهدت الطريق ..

ثمة أربعة حراس يقفون فى الطريق وهم يدخنون لفائف التبغ .. لاترى منهم سوى الجذوات المتقدة فى الظلام .. لكنهم رأوا عيناى التى تلمع فى الظلام ورأوا السلاح فى يدى ..

لو حاول أحدهم أن يمنعني فسوف تحدث مجزرة ..

لكن أحدهم دنا مني وتعرف ملامحي .. أشعل لفافة تبغ وقدمها لي لكني رفضت .. أنا لا أدخن ثم إنني عصبي جدًا إلى حد أنني لن أستطيع تصويبها إلى شفتي ..

قال لي :

- « حظًا سعيدًا .. هل أنت واثق من قدرتك على القيام بهذا ؟ »

قلت في عناد :

- « نعم .. »

- « أنت تفهم .. لن نستطيع المشاركة معك .. لا بد من ذر بعض العيون في الرماد .. »

- « أفهم .. »

وتعانقنا .. وشعرت به يبكي ..

ثم أزحته فى تصميم .. وواصلت طريقى .. مررت بالاثنين الآخرين فتبادلنا النظرات .. ثم واصلت طريقى ..

الآن أرى المشهد كاملاً .. الخنجر ينغرس فى صدرى ببطء .. أنا أكره هؤلاء القوم حقًا .. إنهم يدنسون أرضى وعالمى .. إنهم يسلبوننى راحة البال ..

أسندت ظهرى إلى العمود الرخامى .. وأخرجت من حزامى قنبلة يدوية ، وأزحت عنها زر الأمان ..

إنهم يسجدون على الأرض .. رءوسهم جميعًا تلامسها .. أعرف أن هذه الليلة مهمة لهم لأنها منتصف ذلك الشهر الذى يصومون فيه .. وهذه صلاة الفجر كما يسمونها .. سيكون دوى العملية مجلجلاً ..

نظرت لهم جميعًا .. شيوخ .. أطفال .. رجال .. كلهم يتساوون عندى ..

لقد قال الحاخام (موشى ليفنجر) إن أرض (هبرون) ملكنا وإن أنبياءنا دفنوا فيها .. كلنا يعرف هذا ..

أنا ولدت في الولايات المتحدة .. كنت أحضر اجتماعات (كاهانا) العظيم هناك، ويومها وضع يده على كتفي وقال :

- « (باروخ جولدشتاين) .. هذا اسمك ولسوف يكون لك شأن عظيم .. تذكر .. العرب يطلقون عليها اسم (الخليل) برغم أنه لا مكان لهم في تلك الأرض .. هذه أرضنا وعليهم أن يرحلوا .. »

ثم ارتحلت إلى إسرائيل وعشت في (كريات أربع) على حدود المدينة .. كنت طبيبًا وضابط احتياط في الجيش، لكني ظللت أحترق شوقًا من أجل لحظة كهذه .. خمسة وثلاثون عامًا أنتظر لحظة كهذه ..

وها هي ذي قد جاءت ...

أنا الآن داخل الحرم الإبراهيمي كما يسمونه ..

الآن أقذف القنبلة ..

كان الدوي مروعًا ولا بد أن بعضهم مات قبل أن يعرف أن شيئًا ألقى عليه ..

هكذا ضغطت على زناد بندقيتى الآلية ورحت أطلق النار على هذه الأجساد .. هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

صوت الطلقات مع الصراخ .. صوت الصدى فى المدينة الهادئة .. لقد توقف صوت الذى كان يقود صلاتهم فلا بد أنه هلك بدوره .. هذا على الأقل يريح أذنى قليلاً .

قنبلة يدوية أخرى .. وواصلت إطلاق النار على هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

فيما بعد سيعرف أهلى أننى قتلت 44 فلسطينيًا وحدى .. وجرحت سبعين .. كل هذا خلال عشرة دقائق .. سوف يحتفلون بى ولسوف يقام لى ضريح فى (كريات أربع) يزوره اليهود فى الأعياد ، وسوف يطلقون على لقب (القديس) ..

إن الأمر سهل .. إنهم يتساقطون كالذباب .. أجسر على أن أقول إنه ممتع كذلك ..

هناك فلسطينيون يتجهون لباب المسجد .. غير عالمين أن الحراس أحكموا غلقه من الخارج ..

سأطلق الرصاص على هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

يا للأسف إن طلقاتى قد نفدت .. مشكلة أية نشوة فى الحياة أنها تنتهى ..

سأفجر بعض القنابل اليدوية إلى أن ينتهى الأمر

* * *

للحظة ثبت ـ أنا (علاء) ـ إلى وعيى فنظرت إلى وجهى (بارتلبيه) و(ترامب) الرائعين بجوارى وصرخت :

ـ « أيها الأوغاد الشخص الموجود فى الغرفة المجاورة ! الشخص الذى أقرأ خبراته الجمعية الآن ! »

قال (بارتلييه) فى لهفة :

ـ « ماذا يا (علاء) .. هل عرفته حقًا ؟ »

ـ « إنه الإسرائيلى (إبراهام ليفى) ! ألم تجدوا سواه ؟ »

قال وهو يربت على ذراعى :

ـ « هذا ما أردناه بالضبط .. أن تفهم تراثه ويفهم تراثك .. إن التجربة ناجحة كما هو واضح .. فلتدعها تستمر ! »

كدت أتكلم لكنى انزلقت لعالم انعدام الوعى من جديد ..

* * *

5ـ قصاصات : نهاية الحصة الأولى ..

الثامن من إبريل عام 1970 ..

كم أحب طائرتى (الفانتوم) !

كفاءة هذه الطائرة عالية حقًا .. القمرة مريحة .. ثمة أجهزة استشعار تنذرك بإطلاق صاروخ نحو الطائرة .. دقة عالية فى إصابة الأهداف .. إلخ .. هذا هو الترف الأمريكى الحق ..

نخرق سرعة الصوت فوق سيناء متجهين إلى العمق المصرى ..

فى تلك الأيام السعيدة قبل استكمال حائط الصواريخ السوفييتى الرهيب كانت سماء مصر مفتوحة بالكامل لنا ..

كان بوسعنا الذهاب إلى أى مكان نريده ، ولم تكن طائرات (الميج) المصرية قادرة على ملاحقتنا .. إنها متخلفة عنا بجيلين على الأقل .. فيما بعد حين وضعت شبكة الصواريخ المخيفة صارت سماء مصر كلها محرمة علينا .. لم تعد الذبابة قادرة على اختراق المجال الجوى المصرى .. حاولنا

كثيرًا منع المصرين من إنشاء هذا الجدار لكنهم استبسلوا .. نعم .. أعترف أن هؤلاء القوم حين يريدون شيئًا .....

وهكذا جاء (أسبوع الفـانتوم) الشـهير حيـن راحـت طائراتنا تتساقط كالذباب ، وصدر أمر يمنـع اختراق العمق المصـرى .. أنظـر إلـى الطـائرات الصديقـة المحيطـة بـى .. تشكيلى الـذى أعرفـه وجهًـا وجهًا .. لقد خضنـا سـاعات تدريب طويلة ونعـرف أن هـذه المهمة بسيطة لكننـا نـدرك كذلك أن الخطأ سيكون فادحًا ..

نعبر قناة السويس ..

مدفعية مضادة للطائرات تطلق علينا من حافة القناة من المواقع المصرية ، لكنها تنفجر قبـل أن تقتـرب منـا .. هذه هى مصر كما رأيتها مرارًا عديدة من قبل .. أحفظ كل شـبر منها ..

الهرم الذى بناه أجدادى .. المصريون يزعمون أنهم مـن بنوه لكننا نؤمن بما قاله لنا آباؤنا .. الهرم ملكيـة يهوديـة كاملـة وسيبقى اليوم الذى نطالب به .. يمكن كذلك أن نشكك فى أنهم صنعوه بطرق أكثر مراوغة .. نتحدث عن الفضائيين الذين جاءوا من كوكب آخر ليبنوا الهرم .. هم سيلتقطون الخيط

بحماقة ويرددونه لما فيه من إثارة .. قل أى شىء .. المهم ألا يقتنع المصريون بأنهم قادرون على معجزة مثل بناء الهرم .. خذ منهم ماضيهم وأعطهم حاضرًا تعسًا ومستقبلاً غامضًا ..

هذا هو النيل .. شريان حياة مصر .. الفراعنة الذين عاملونا بغلظة واستعبدونا .. الشخصية اليهودية لها مزية مهمة ، هى أن الزمن لا يلعب معها أى دور .. إنها تنتقم من جريمة ارتكبت ضدها منذ قرون ،ولا تنسى ما حدث .. تطالب بأشياء وعدت بها منذ آلاف السنين .. فى أعماقى حصار (بابل) وقلعة (ماسادا) ودبابات النازى فى (وارسو) ..

لكن الأمور اختلفت اليوم .. اليوم لن نعذب ـ بفتح الذال ـ بل سنعذب ـ بكسرها .. لن نخاف بل سنخيف .. لن نقتل ـ بفتح التاء ـ بل نقتل ـ بكسرها ـ ..

هذه هى معالم البلدة .. محافظة الشرقية كما يقول المصريون ..

الريف هادئ مسالم من تحتنا .. مربعات خضراء تنتظر لمسة من النيران .. نحن (الفالكيرى Valkyrie) القادمون من السماء لنحيل الأرض نارًا .. (فاجنر Wagner) وصف بموسيقاه كيف تنقض بنات (أودين) أو (الفالكيرى) من

السماء ليخطفن الأرواح إلى (فالهالا Valhalla) .. نحن نكره (فاجنر) لأن النازيين أحبوه .. لكن لا ننكر أنه عبقرى فى هذه المقطوعة بالذات ..

هذه هى القرية ..

هذه هى المدرسة ..

بناية متداعية فقيرة لو تركناها عشر سنوات أخرى لسقطت وحدها .. رباه ! كم هم فقراء هؤلاء المصريون !

لا بد أن الأطفال فى درسهم الأول الآن .. أنا أشعر بالجوع فلم ألتهم إلا قطعة بسكويت قبل بدء المهمة ، لكنى سأنتهى سريعًا ولسوف يكون إفطارًا شهيًا بحق .. أشهى إفطار فى العالم هو ما نتناوله بعد القتل ..

الطائرة القاذفة تتقدم وتلقى حمولتها من حالق ..

ترى هل شعروا ؟ هل رأوها وهى تقذف ؟

لا أعرف .. لكن دور الطائرة التالية جاء ..

المزيد من القنابل يهوى فوق البناية ..

زهرة اللهب تشتعل .. تتوهج ..

الدخان يعلو لكبد السماء ..

أقرب فمى من الميكروفون وأطلب (عموس) فى طائرته :

ـ « مهمة ناجحة .. يكفى هذا .. لانريد أن تتبخر البناية .. »

وتتلاقى طائرات التشكيل وتدور حول القرية ثم ننطلق عائدين إلى إسرائيل ..

فيما بعد سوف يملأ المصريون الدنيا صراخًا .. ثلاثون تلميذًا فى المرحلة الابتدائية هلكوا يجلسون فى الصف الدراسى فى مدرسة (بحر البقر) .. سوف تنهال برقيات الاحتجاج والإدانة .. كل العالم سيبكى بعينين ذاهلتين ما حدث .. والحقيقة أن هذا كل شىء .. فعلاً كل شىء .. الكل يقبل الأمر الواقع وحقائق القوة .. فى النهاية تمت الغارة وانتهت .. ونسى العالم الأمر برمته .. لقد نسوا إلقاء قنبلة ذرية على مدينة كاملة فلماذا لاينسون هذا ؟

الحقيقة فى هذا العالم : لا يوجد عقاب على جرائم الحرب .. لا أحد يعاقب إلا إذا أراد الكبار عقابه ..

سوف يزعم وزراؤنا كالعادة أن المدرسة كانت موقعًا عسكريًا ، وسوف يزعم البعض أن هناك محطة صواريخ بجوارها .. إلخ .. كل هذا هراء .. العالم كله يعرف أن هذا هراء لكنه سيصمت ..

كان الأمر مجرد انتقام صغير توجهه إسرائيل لمصر بعد تصاعد عملياتها فيما يدعى بحرب الاستنزاف .. المصريون يعبرون القناة مرتين على الأقل كل أسبوع لينسفوا سيارة أو يقتلوا جنديًا .. (عبد الناصر) يقول للفلسطينيين : «فقط أريد أن أسمع طلقة واحدة كل يوم تطلقونها أنتم داخل الأرض المحتلة .. هذا يكفى كى تظل القضية حية .. »

كان لا بد من درس بسيط .. وهذا هو الدرس ..

فيما بعد سيكتب المصريون قصائد مثل : « الدرس انتهى لموا الكراريس » و« محافظتى الشرقية ومدرستى بحر البقر الابتدائية » .. ثم ينسى العالم كل شىء ..

وحين هبطت الطائرات أخيرًا ترجلت من طائرتى ..

وبرغمى صعدت على الجناح وطبعت على جسم الطائرة الساخن قبلة حب ..

* * *

6 ـ قصاصات : مقتل مذيعة أطفال ..

الحادى والعشرون من فبراير عام 1973 ..

خطأ بسيط .. لكنه خطأ قاتل ..

من جديد أنطلق بطائرتى الفانتوم فوق سيناء .. هذه المرة أنا أدعى (باروخ بالتيالى) .. لم أقم بالغارة على (بحر البقر) لكننا كل واحد كبير .. نحن القوة التى تحرك إسرائيل إلى الأمام ..

فى هذه المرة مهمتى محددة وبسيطة ..

هناك طائرة اخترقت أجواءنا .. طائرة مدنية .. عرفنا من الاتصال بقائدها انها ليبية .. قائدها فرنسى بالمناسبة ومن الواضح أنه ضل الطريق فدخل مجالنا الجوى ..

طلبنا منه أن يعرف بنفسه فعرفنا وكانت معلوماته دقيقة واضحة ..

اتصلنا بالقيادة .. ماذا نفعل ؟ من المنطقى أن نرافقه إلى أن يهبط فى أحد مطاراتنا ..

جرت سلسلة الاتصالات المعروفة ، حتى بلغت أعلى مستوى فى القيادة .. ومن (موردخاى جور) قائد القوات الجوية إلى رئيس الأركان (ديفيد أليعازر) نفسه .. لا بد أنه صحا من النوم متعكر المزاج مزمجرًا ..

قال لمن اتصلوا به :

ـ « هذه طائرة تجسس .. إن قاعدة (بئر سبع) قريبة .. »

قالوا له إنه لا يوجد أى دليل على ذلك ، فقال فى عصبية :

ـ « إذن هى مهمة انتحارية ينفذها بعض الفدائيين على متنها .. »

قالوا له إن احتمال ذلك ضعيف جدًا .. موقف الطائرة واضح وقائدها فرنسى و ....

ـ « أسقطوها حالاً ! »

جاءتنى الأوامر وأنا أحلق على مسافة من الطائرة .. كان هذا جميلاً .. قليل من الطيارين من تتاح له فرصة إسقاط طائرة مدنية .. وأن يكون هذا بأوامر عليا ..

هكذا ابتعدت عنها ونقلت الأمر إلى (روزنين) زميلى ..

الطيار الفرنسى يميل ليرفع أحد الجناحين لأعلى علامة على الاستسلام كما يقضى القانون الدولى .. الحقيقة أن هذا الفتى فعل كل ما بوسعه ليخبرنا بحسن نيته .. لكن قرار الإعدام قد صدر .. يكلم برج المراقبة .. كانت هذه هى اللحظة المناسبة .

أطلقت صواريخى وكذا فعل (روزرين) العزيز ..

فقط سمعت الطيار يقول فى اللاسلكى :

ـ « إنهم يضربوننا بالصواريخ ! »

كان الانفجار فظيعًا .. للحظات استحال ليل سيناء شمسًا ساطعة .. وتناثرت الشظايا الحديدية فى كل صوب ..

وفى (واشنطن) عرفت (جولدا مائير) بالقصة فور حدوثها ، وقد التف حولها الصحفيون وسألوها عن رأيها .. قالت :

ـ « لا تهمنا وجهة الطائرة .. المهم هو هدفها ! »

ـ « وهل يمكن أن تكررى هذا العمل مرة أخرى ؟ »

قالت فى ثبات :

ـ « نعم .. مرارًا !! »

كنت أعرف وأنا عائد إلى القاعدة ما سوف يحدث .. شجب .. تنديد .. إدانة .. ربما يحتاج الأمر إلى اعتذار بسيط من الحكومة الإسرائيلية .. ربما يوجه لنا اللوم برغم أن أوامرنا صريحة .. ثم ينتهي الأمر .. نحن أقوى من القانون وأقوى من العقاب ..

فيما بعد سأموت أنا حين يضرب صاروخ (سام 6) مصرى طائرتى فى حرب 1973 .. ولسوف يموت (روزرين) فى عملية للجيش الإسرائيلى عام 1977 .. لكن لا تقل إن هذه عدالة شعرية من فضلك .. لابد أن أموت يومًا ما .. ألا ترى هذا معى ؟

إن واحدًا من أشرس طيارينا ، والذى أطلق على نفسه اسم (مناحم جولان) - معتبرًا نفسه قاهر (الجولان) السورى - هو اليوم من أهم منتجى السينما فى (هوليوود) وهو صاحب شركة (كونان conan) ، التى يشاهد العرب أفلامها ويستمتعون بها ، ويلتقون به على شاشات برامجهم ..

قد ينتهى الطيار محترقًا وقد ينتهى الطيار فى (هوليوود) .. لا مشكلة ..

لم نكن نعرف أن وزير الخارجية الليبى (صالح بوصير) كان على متن الطائرة ، كما كانت هناك مذيعة مصرية تخصصت فى برامج الأطفال اسمها (سلوى حجازى) وكان الأطفال المصريون يهيمون بها حبًا .. حسن .. لا بد أن أشخاصًا مهمين جدًا كانوا ضمن المائة والستين شخصًا الذين تناثرت أشلاؤهم على رمال سيناء .. لكن هذه ليست مشكلتى ..

ليس هذا سوى مسمار يدق فى نفسية العرب .. والعملية ليست ذات تأثير عسكرى على الإطلاق ، لكنها عظيمة الأثر من الناحية النفسية ..

فليكن حداد فى كل بيت عربى .. إلى الأبد ..

* * *

7ـ قصاصات : القتل بلا كراهية ..

يونيو 1982 ..

ما زالت (بيروت) تقاوم .. الحقيقة أننـا توقعنـا ألا يـدوم الحصار كل هذا الوقت .. حسبنا أن الفلسطينيين سيستسـلمون لنـا خـلال شـهر علـى الأكثر لكن الحصـار طـال وقد بلغـت روحنا الحلقوم ..

هذا الحر .. لا أطيق الحر .. إنه يلتصق بقميصك وثيـابك وروحك ..

ثم الذباب .. لشد ما يضايقنى الذباب ..

الهواء الساخن حول المدينة يجعل الصورة متموجة كأنك تراها على صفحة الماء ..

فى كل مكان نجد الفلسطينيين .. إنهم دائمًا هنالك .. ألـن ينتهوا أبدًا ؟ ألا يستسلمون ؟

نحن لا نرفض الحياة معهم .. هكذا قال (بيجين) بوضـوح تام لكن بشرط واحد هو : أن يعترفوا بأنهم تحت رحمتنا ..

لماذا لا يعترفون ؟

الهاتف الميدانى يدق .. أمسك بالسماعة وهى تنزلق بفعل العرق ..

(آرييل شارون) قائد العمليات على الخط من الناحية الأخرى .. (شارون) يملك أكثر لسان سليط فى القادة هنا ، ومن النادر أن يقول جملة واحدة دون سبة أو سبتين مما يعاقب عليها القانون .. من المثير أن ترى شخصًا يتفق مظهره مع مخبره إلى هذا الحد ..

قال لى بطريقته العنيفة :

ـ « ماذا تنتظر أيها (الحلوف) بالضبط ؟ ألم تقطع الماء عن المدينة ؟ »

قلت فى حذر وأنا أجفف العرق المحتشد على حاجبى :

ـ « أنت لست معنا هنا .. لاتتصور حرارة الجو .. أنا لا أبالى بهؤلاء الفلسطينيين لكن .. تصور قطع الماء عن الأطفال فى هذا الحر .. »

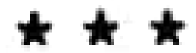
فى عصبية أطلق بضع شتائم تخص أبى وأمى .. ثم أردف :

ـ « لهذا السبب بالذات لابد من أن تقطع الماء حالاً .. هل انضممت إلى جمعيات حقوق الإنسان ، أم تنوى العمل كمربية ؟ »

ـ « لا هذا ولا ذاك .. سأقطع المياه .. »

أحيانًا أشـعر بأن هـذا الرجـل ليس آدميًا ، وإنمـا هو (مارس Mars) إله الحرب عند الإغريق .. كان لاينتعش إلا مع رائحة البارود والدماء وصوت الصرخات ..

سيكون وقت الفلسطينيين واللبنـانيين عسيرًا .. خاصـة حين يستمر انقطاع المياه أيامًا بل عدة أسابيع ..



أنا يهودى شرقى من اليمن .. (سيفارديم Sephardim) .. ليس من حقـى إلا أن أعمـل كعامل بنـاء أو أى عمـل غير مهم .. منزلى ضيق رخيص .. علـى حين يستحوذ اليهـود الغربيـون (الأشـكيناز Ashkenazi) علـى كـل المنـاصب المهمـة .. كل القـادة جـاءوا مـن شـرق أوروبـا .. وهـم يعتبرون أننا أقل منهم ذكاء .. بل إن أحدهم قال إننا ننتمـى للقرن السادس عشر ..

أخذت علبة سبراى طلاء ، وفرغت حروفًا فى قطعة من الورق المقوى ، ثم خرجت إلى أحياء (حيفـا) الخلفيـة ورحت أطبع هذا الشعار على كل جدار :

Ashke – Nazi

هكذا قمت بتقسيم الاسم لأدل على أنهم نازيون لا يختلفون في شيء عن معذبينا ..

رحت أطبع الشعار عدة مرات على عدة جدران ، حتى فوجئت بأحدهم يمسك بي من ياقتي ..

استدرت لأرى مجندين يبدو واضحًا من ملامحهما أنهما من (العدو) .. من الأشكيناز ..

هتف أحدهما وهو ينظر لي في توحش :

- « أنت أيها الوغد ! تتهمنا بالنازية ؟ هل أنت عربي ؟ »

وقال الآخر :

- « فعلاً ملامحه عربية ! »

وقبل أن أتكلم وجه لي ركلة في أسفل بطني بالحذاء العسكري الثقيل .. ثم رفعني من ياقتي ووجه أعنف لكمة ممكنة إلى نقني .. فسقطت أرضًا ..

لكن الحفل كان في بدايته ..

إنني جسد معدوم الحيلة يرقد على الأرض ..

إنني .... آي !

* * *

الجمعة .. التاسعة من إبريل عام 1948 ..

عملية العمليات كما قيل لنا ..

يجب أن نكون حذرين وألا نرتكب أية أخطاء ..

كنا فى الثانية بعد منتصف الليل تتقدم سيارتنا فى الظلام .. أفضل وقت لمهاجمة خصمك هو ما قبل الفجر بقليل .. ساعة الذئب كما يقولون .. حين يكون خصمك فى أضعف وأوهن حالاته ..

ألوح ببندقيتى للرفاق فيلوحون لى ..

من بعيد أرى المدرعات تتقدم .. جماعة (شتيرن Stern) تلحق بنا وأنا أعرف أن هؤلاء القوم لا يمزحون .. ومن الناحية الأخرى تتقدم (الإرجون Irgun) .. رأيت صديقى (أموتاى) يفك السونكى عن بندقيته فنظرت له بدهشة .. قال وهو يعلق البندقية :

ـ « سأقتل بالسلاح الأبيض فقط .. إن تأثيره النفسى مروع .. »

من بعيد تلوح القرية النائمة .. ليست نائمة تمامًا .. هناك أضواء وصوت موسيقا .. لا بد أنهم يرقصون (الدبكة) فى مكان ما .. صحت مناديًا (عزرا) :

ـ « هناك حفل زفاف يا (عزرا) .. سنكون أول المهنئين ! »

لوح ببندقيته فى الهواء وهتف !

ـ « سيرقصون كما ينبغى الرقص ! »

هذه قرية مسالمة حقًا .. من المؤسف أنها قرية مسالمة .. خطؤها الوحيد هو أنها تقع ما بين (تل أبيب) و(أورشليم) .. لقد جاءت فى المكان والزمان الخطأ .. والحقيقة أن موقعها كان يصلح رابطًا ممتازًا بين البلدتين المهمتين ، أو ـ كما كان الكثيرون منا يفكرون ـ تصلح مطارًا ممتازًا ..

وعلى أبواب القرية ترجلنا وانطلقنا .. سيكون عددنا ثلاثمائة مقاتل ..

وانطلقنا إلى الداخل ونحن نطلق الرصاص كما يفعل أمريكى مخلص فى يوم عيد الاستقلال .. كل من قابلناه يتحرك أرديناه أرضًا .. حتى الماشية .. حتى الكلاب ..

أطلقوا النار على هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

بينما راح زملائى (الهاجاناه Haganah) الشجعان يلقون بقنبلة يدوية داخل كل بيت ..

أطلقوا النار على هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

تحول المشهد إلى ملحمة من الصراخ والعويل والألم .. النار تشب فى كل صوب .. لامقاومة .. هؤلاء الفلاحون المسالمون لايعرفون عن الحياة أكثر من أشجار الزيتون .. بينما رجالنا محاربون على أعلى مستوى ..

أطلقوا النار على هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

إن تعداد هذه القرية لايتجاوز الستمائة ، لهذا على كل واحد منا أن يقتل اثنين .. هذا لن يكون صعبًا ..

لا تستعمل اسم (دير ياسين) من فضلك .. هذا الاسم لا وجود له عندى .. فقط سأستعمله فى هذا السياق كنوع من المجاملة لك ، وبعد هذا ننساه تمامًا ..

أنا لا أحمل لهؤلاء القوم مشاعر شخصية .. لنقل إن هذه عملية جراحية الهدف منها إثارة أكبر قدر من الهلع .. وفيما بعد قال مهندس العملية (مناحم بيجين) ـ الذى نال جائزة (نوبل) للسلام ـ إنها كانت أهم عملية نقوم بها .. وإن كل من يقول غير هذا منافق كبير .. سوف تثير ذعر العرب ولسوف يفرون من ديارهم فلن يبقى من ثمانمائة ألف عربى إلا مائة وخمس وستون ألفًا .. الحقيقة أن هذه العملية تمثل الميلاد الحقيقى لدولة إسرائيل ، ولسوف يعتبرها مفكرون إسرائيليون كثيرون (عملية إنسانية) كبرى .. لِمَ لا ؟ ألم تقدم المأوى لشعب الله المختار ؟

كنا ندخل كل بيت فنوقف أفراد الأسرة ووجوههم إلى الحائط ، ثم نطلق الرصاص عليهم من الخلف .. الحقيقة أن هذا كان أسلوبًا خاطئًا لأن عددًا كبيرًا من الأطفال نجا حين سقط الكبار فوقهم .. وهؤلاء حكوا أشياء كثيرة ..

الآن يمارس الأصدقاء الأعزاء كل الأساليب الشنيعة التى تسمع عنها .. إن السونكى يؤدى عملاً جميلاً هنا كما

قال (أموتاى) .. لقد شق أحدنا بطن سيدة حامل بالكامل ثم تركها .. فى هذه اللحظة وثبت أختها نحوها وراحت تحاول إخراج الجنين من بطنها ليظل حيًا .. أثار هذا ثائرة الزميل فشق بطن الأخت ، ثم أمسك الجنين من قدميه وطوّحه فى الجدار المقابل ..

السونكى أيضًا يمكنه أن يشق رجلاً إلى نصفين .. بالطول !

واستمر الحفل بضع ساعات وفى نهايته جمعنا من بقى حيًا فى القرية وأوقفناهم صفًا وأرغمناهم على حفر القبور لأنفسهم .. ثم أطلقنا الرصاص عليهم ..

كنا منهكين حين ركبنا سياراتنا عائدين عند الظهيرة .. منهكين جائعين لكننا نشعر بسعادة لا حد لها .. سعادة الجندى الذى أنجز واجبه المنزلى ..

كنت غارقًا فى الدماء الجافة ، وسألت نفسى بينما هواء أرضنا يلثم وجهى : ما هذا الذى فعلته وكيف ؟ هل أنا بهذه القسوة ؟ بالعكس .. مازلت أعتبر نفسى كائنا رومانسيًا رقيقًا .. هناك سببان لما فعلت : أولاً أنا مؤمن بأن هذا ضرورى كى توجد إسرائيل .. هذه عملية جراحية تتسم بالقسوة لكنها جوهرية .. ثانيًا : أنا لم أستطع قط أن أعتبر العرب كائنات بشرية ..

فيما بعد سنقول للغربيين ـ غير المبالين في الواقع ـ إننا فعلنا هذا لأن هذه القرية معقل للإرهابيين العرب الأجانب .. جحافل من السوريين والعراقيين تأتى هنا لتهاجم نساءنا وأطفالنا .. هذه الحجة قديمة جدًا كما ترى ولسوف نستعملها بلا انقطاع خمسين عامًا أخرى ..

فيما بعد سوف تسوى البلدة بالأرض كي تزول من على الخارطة ، ثم يأتي اليهود المتدينون من رومانيا وسلوفاكيا ليعيشوا هنا .. فيما بعد سوف تتسع مساحة (أورشليم) تشملها ، وتصير (دير ياسين) مجرد مساحة بين (جيفات شول بيت) ومستوطنة (حار نوف) .. والآن لا تكلمني عن (دير ...) .. ماذا ؟ ماذا كنت تسميها ؟

كانت (سارة) تنتظرني في المعسكر وفي عينيها لهفة الحبيبة والأم ..

عانقتها .. برغم أنني لم أغتسل بعد ..

سيولد ابننا من جيل (الصابرا) أول جيل لليهود على أرض إسرائيل .. (صابرا Sabra) بالعبرية معناها (الصبّار) .. خشنًا موذيًا من الخارج لكنه من الداخل مفعم بالرحيق ...

* * *

8- قصاصات : ماسادا وبابل .. إلخ ..

العام 586 قبل الميلاد ..

الجوع يمزق أحشاءنا .. الأطفال يعانون الظمأ .. إن قومى يتصارعون فى الطرقات على قطعة خبز وجدوها على قارعة الطريق ، لقد سرق أحدهم حمار (أفرايم) والتهمه .. لكننا قبضنا على السارق وشنقناه .. بعد يوم واحد وجدنا أن هناك من التهم السارق ..

كم مر على هذا الحصار ؟ العام والنصف ؟

هؤلاء البابليون مصرون على قهر تمردنا .. لن يتزحزحوا أبدًا ..

فى الشوارع تمشى وسط الجثث فلا تجد موضع قدم .. لقد بدأت الرائحة تخنق الأنفاس ، ولعلك شاعر بأنك إذ تتنفس إنما تتنشق الوباء داخل صدرك ..

لماذا لا يدفنهم أحد ؟ لأن اللحادين ماتوا ..

وحين عدت إلى الدار وجدت زوجتى تقف متحاملة جوار النافذة .. كلمتها فلم ترد .. كانت تلتهم قطعة من الطين الجاف ، وقالت لى بصوت مبحوح :

- « شد ما يقتلنى الظمأ ! شد ما يقتلنى الظمأ ! »

كان هذا آخر ما قالته لأنها فى اللحظة التالية سقطت على الأرض .. ولم تنطق بحرف ..

جثوت جوارها دامع العينين لا أدرى ما أقول ..

الحقيقة أنها سعيدة الحظ .. أكثر منا نحن الأحياء .. كل من يموت قبل أن يقع فى أسر البابليين سعيد الحظ .. وقد ظللت وقتًا طويلاً أنظر لجثتها .. وقلت لنفسى : « لن أنسى ما حدث .. سوف أنتقم ولو بعد ألف عام .. »

ليس العراقيون اليوم مسئولين عما فعل البابليون ، لكن ليس بالنسبة لنا .. ما زالت شهوة الانتقام موجودة وحية ..

* * *

بشكل أو بآخر كنا ندرك أن العرب ليسوا هم المسئولين عن تعاستنا .. لكن التعاسة تشبه اللعنة التى تتحدث عنها الأساطير .. لابد من أن تعطيها لأحد سواك كى تتخلص منها ..

* * *

- « لماذا ينبغي للعرب التوصل إلى السلام ؟ لو قدر لى أن أكون زعيمًا عربيًا لما تصالحت مع إسرائيل على الأطلاق . هذا أمر طبيعى .. نحن قد استولينا على بلادهم . وهم لا يعنيهم فى شىء أن الله وعدنا بها لأن دينهم غير ديننا . لقد كانت هناك معاداة للسامية ومعسكرات اعتقال نازية ، ولكن ذلك ليس ذنبهم .. هم لا يرون إلا شيئًا واحدًا هو أننا جئنا إلى هنا وسرقنا بلادهم ، فلماذا ينبغى عليهم قبول هذه الحقيقة ؟! »

ديفيد بن جوريون مؤسس إسرائيل

* * *

هكذا تكلم معلمنا العظيم (بن جوريون Ben Gurion) .. مشكلة العرب هى أنهم تواجدوا فى المكان الخطأ والزمن الخطأ .. وكانوا ضعفاء مشتتين بطريقة تغرى أى شخص عاقل بأن يعتدى عليهم .. حقًا لا أستطيع أن أفهم كيف تتحمل هذه الكتلة البشرية التى تربو على مائة مليون تلك الإهانات المتوالية من خمسة ملايين مهاجر ؟ إن قصة (داڤيد) و (جولیات) تتكرر .. الفتى الضئيل الذى هزم العملاق المرعب إذ وجه ضربة بالمقلاع إلى عينه : بعض ما نفعله يفوق الاحتمال البشرى لكنهم يتحملونه .. هناك من يرى أننا كررنا معهم ما حدث لنا .. صارت الضحية جلادًا أكثر قسوة ..

حسن .. لن أختلف حول هذه النقطة كثيرًا .. لكننى أرى أن العذاب يجب أن يذهب إلى شخص ما .. وبكل تأكيد لا أرغب فى ان يكون هذا الشخص نحن ..

* * *

عام 73 قبل الميلاد ..

نحن الأقوى !

لقد تسللنا إلى قلعة (ماسادا Masada) المطلة على البحر الميت .. تم هذا فى ظلام الليل .. لم يشعر بنا أحد .. نفذنا الخطة المطلوبة .. كنا نعرف أماكن الحراس ، وقد قتلناهم جميعًا فى صمت .. بعد هذا بدأ المرح الحقيقى .. لقد كان أغلب أفراد الحامية الرومانية نائمًا ..

هكذا تسللنا إلى مخادعهم .. مضحكون هؤلاء الرومان حين يموتون .. إنهم يقولون كلامًا كثيرًا باللاتينية ثم يصمتون إلى الأبد .. هكذا رحنا نقتلهم واحدًا تلو الآخر ..

هناك من صحا وحاول المقاومة لكنه لم يستطع أن يجد الوقت كى يمسك بسيفه ..

استمرت العملية خمس ساعات وفى النهاية سيطرنا على القلعة تمامًا .. ورحنا نحتفل بهذا ..

قال العجوز (دانيال) وهو يجرع الماء بيده التى ترتجف ، حتى بلل ثيابة كلها :

- « لقد قارفنا خطأ كبيرًا يا (أليعازر) .. إن الرومان لا يرحمون ولسوف يأتون للانتقام .. »

قلت له فى غيظ :

- « ألن تكف عن هذا أيها العجوز الأحمق ؟ فى لحظة الانتصار لا بد من أن ينعق غراب بين فى مكان ما .. لقد ذبحنا الرومان وهذا كاف .. »

قال العجوز وقد أتم عملية الشرب الشاقة :

- « لكن الرومان حتى هذه اللحظة قد تركونا نمارس حريتنا الدينية .. منذ حدث ذلك التمرد وصلب (جانيوس) ثمانمائة منا لم تحدث أية متاعب أخرى .. نحن الذين أضعنا الوقت فى حروب داخلية وصراعات أهلية .. أحيانًا أعتقد أن ألد أعداء اليهودى هو يهودى آخر .. لقد مات مائة ألف يهودى بأيدينا نحن لا بأيدى الرومان .. »

كنت فى حالة من السأم ، وقد لعبت خمر النصر برأسى فلم أرد المزيد من الجدال ..

قلت لـه وأنـا أعتلـى أسـوار القلعـة لأطـل علـى البحـر الميت :

- « قلت لك أن تخرس .. »

قرر أن يبتعد ، وقد شعر بأن كلمة أخرى ستجعلنى أطير عنقه من فوق رأسه .. فقط قال وهو يبتعد :

- « حينما يعود الرومان سوف تسيل دماء أكثر فأكثر .. »

* * *

سبعة أعوام كاملة !

سبعة أعوام من الحصار !

من فوق أسوار القلعة أرى الجيش الرومانى كلـه تقريبًا يقف هناك .. وقد التمعت دروعه فـى الشمس وشكل المربعات الشهيرة .. فعلاً هو منظر يبعث قشعريرة بـاردة فـى العروق .. فقط (هانيبـال) كـان الرجـل الوحيد الـذى لـم يرهبـه هـذا المنظر فى التاريخ كله . دعك من اللغة اللاتينية ذاتها حيـن تخرج من القادة .. فتشعر بأن لها رنين القدر ذاته ..

لقد مات العجوز (دانيال) ..

مات منذ عامين من فرط السغب .. والحقيقة أنه سعيد الحظ .. لم يعش ليشعر بالعذاب الذى نمر به كل يوم من فرط السغب والظمأ .. هناك يهود كثيرون قتلوا أطفالهم وأكلوهم .. هذا شىء مفهوم بالنسبة لى ..

تبًا ! كل تاريخنا هو الحصار .. محاصرون طيلة الوقت .. لهذا سوف يلتذ كل يهودى باللحظة التى يحاصر فيها شيئًا ما .. جائعون طيلة الوقت لهذا سننتشى حين نجيع الناس ..

الآن المنجنيق يقذف المدينة ..

من بعيد ترى تلك الكتلة الضخمة المشتعلة بالنيران تطير فوق الرءوس .. لاتعرف أين تهوى .. فوق رأسك .. فوق رأسى ؟ فوق رأس أكثر من أحببت .. لاتعرف ..

وحين تهوى فوق أعز أصدقائك تتنفس الصعداء لأنك نجوت هذه المرة ..

كتلة أخرى ..

كتلة أخرى ..

هؤلاء القوم لايتعبون كما يبدو لى ..

ثم بدأت الأبراج الصلاقة المخيفة تزحف زحفًا كي تلتحم بالأسوار .. الأرض تهتز تحتها كأنما هو زلزال وشيك ..

طقوس حصار المدن القديمة يتكرر حرفيًا .. سوف نقتل أول موجة بشرية وسوف نسكب الزيت المغلى - لو وجدنا بعضه - على أول من يأتي .. ثم بعدها يصير هجوم الذباب أسرع مما نقدر على صده .. وعندها نسقط .. تسقط القلعة .. سوف يربطون نساءنا بحبال الليف من أعناقهن ليبعن فى سوق العبيد ، أما نحن فسوف نصلب عدة أيام لأن الرومان لا يهوون القتل السريع ..

فى داخل القلعة اجتمع حكماؤنا .. كان قرارهم واضحًا :

- « لن يأخذنا الرومان أحياء .. »

- « ولكن كيف ؟ سوف يبقى منا من لا يستطيع القتال .. »

- « الحل هو أن نقتل بعضنا ! »

وكانت الفكرة رهيبة لكن لا وقت للتفكير فيها ، لأن قذائف المنجنيق تهوى بلا توقف . وهدير الأبراج الموشكة على الالتحام ينذر بأن الوقت قصير جدًا ..

هكذا لم نتشاور كثيرًا وانطلقت أنا بسيفى أقتل من وجدت من نساء وأطفال يهود ..

كان عملاً قاسيًا على النفس لكنى أنجزته بنجاح ..

عشرة من أصدقائى راحوا يقتلون الشيوخ والمحاربين الآخرين .. ثم راح كل منهم يقتل صاحبه .. فى النهاية - بعد قتل متواصل استمر نصف الساعة - لم يبق سوى وصديقى الصدوق (ديفيد) ..

وقفنا والسيف فى يد كل منا يقطر دمًا .. كنا نلهث فى إرهاق ونظرة حيرى فى عين كل منا ..

قال لى وهو ينزل سيفه :

- « هلم (أليعازر) .. لتفعلها أنت .. »

كان هذا كرمًا منه .. الحقيقة أننى لم أتصور أن أقف منتظرًا حتى يغمد أحدهم سيفه فى جسدى .. هكذا وقف منتظرًا فطوحت بسيفى فى الهواء وأطرت عنقه ..

الآن جاء دورى .. أنا آخر من بقى فى القلعة ..

وضعت السيف على الأرض ونصله لأعلى وقررت أن أهوى بصدرى فوقه ..

فيما بعد سوف يقتحم الرومان القلعة ليجدوا أننا جميعًا موتى .. لسنا جميعًا .. إن اليهود لم ينقرضوا من

على وجه الأرض ، ما زال هناك أحياء فى القلعة وهم الذين أفلتوا من الانتحار الجماعى ..

وسوف تبقى عقدة (الماسادا) فى ذهن اليهود أبد الدهر .. عقدة الحصار .. الخوف من الحصار .. ومن الأماكن المغلقة .. ولهذا سوف تجد ممرًا خارجيًا لكل حارة يهود .. ولسوف تجد مهربًا سريًا لكل (جيتو Ghetto) يهودى ..

سوف تتخذ الحكومة الإسرائيلية قلعة ماسادا مزارًا سياحيًا ، ولسوف يجلبون لها التلاميذ والجنود ليقسموا أنه لن تتكرر الماسادا ثانية ..

لن تتكرر ثانية ...

لن تتكرر ثانية ...

* * *

9 ـ قصاصات : ابن عرس والدجاج ..

السادس عشر من سبتمبر عام 1982 :

من الغريب أن شهر سبتمبر (أيلول) لا يمـر بخير علـى الفلسطينيين أبدًا ..

يقف (شارون) قائد وحدة العمليات الخاصــة (101) مبرزًا كرشه العظيم الذى يفخر بـه واضعًا قبضتيه فـى خصريه .. الهواء يطـير خصـلات شـعره الأبيـض علـى وجهه .. فى كل صورة رأيتها له كـان شـعره أبيض .. إذن فهو لون وراثى ..

(بن جوريون) كان يراه مندفعًا أكثر من اللازم ، لكنه فـى النهاية يقول إنه (ولد طيب) .. كلنـا كان يعرف إنه مندفـع لا يحترم الرؤساء ولا يصغى لأحد .. دعك من قاموسه اللغوى الذى يتضمن ألعن مجموعة شتائم يمكن أن تتصورها .. لكننا ـ حيث وقفنا خارج (بيروت) ـ كنا نرى إنه لو كـان علينـا أن نحارب فمن الأفضل أن يكون (شارون) قائدنا ..

(شارون) لا يخفى كراهيته الشديدة للفلسطينيين .. إنها كراهية شبه دينية .. لمَ لا والمولدة التى جاءت به للحياة

هى جدة (بيجين) ذاته ؟ كذلك لا يخفى تطلعه فى جشع إلى الأردن .. حلم حياته أن يحشر الفلسطينيين هناك لتكون هذه فلسطين وتنتهى المشكلة ..

(شارون) قلق ..

إنه ينتظر اللحظة المناسبة لدى حلول الليل ..

يفترش الرمال جوار الدبابة ويخط رسومًا على الرمال ..

هذه الأنوار هناك هى معسكرا (صابرا) و(شاتيلا) الفلسطينيان فى لبنان ..

فى هذه المرة لن نحارب ، سوف يحارب سوانا بالنيابة لكننا سنلعب دورًا أقرب إلى الحرب .. تخيل أن تحبس رجلاً فى حجرة ، ثم تفتح الباب وتدخل معه كلبًا شرسًا جائعًا ، ثم تغلق الباب ثانية ؟

هذا هو ما ينوى (شارون) القيام به الليلة ..

* * *

الشمس تغرب .. شمس يوم الخميس التى تعلن بقدوم يوم من الراحة والاسترخاء بالنسبة للعرب ..

نرى في الأفق قوات الكتائب قادمة .. هذه القوات بينها وبين الفلسطينيين ما صنع الحداد .. ومعنى اقتحامها المعسكرين أن مذبحة حقيقية ستحدث ..

أمسك (شارون) بجهاز اللاسلكى وقال كلمة السر :

ـ «أخضر !»

ثم أشار (شارون) القلق إلى المدفعية فانطلقت ..

لكنها لم تطلق قنابل متفجرة وإنما شعلات مضيئة أنارت السماء ..

لا بد أن سكان المخيم لم يفهموا ما حدث .. فجأة وجدوا أن الليل قد ولى وأن الشمس قد سطعت فى الثامنة مساء ..

شعار العملية هو (ليرحمه الله بلا عواطف !)

الآن يقتحم رجال الكتائب المعسكر ..

قلت فى حيرة بعد دقائق :

ـ «لا نسمع طلقات .. »

ابتسم (شارون) فى واحدة من المرات القليلة التى يبتسم فيها وقال :

ـ «إنهم يذبحونهم ! إن الذبح لا يحدث صوتًا !»

يمكن تخيل ما يحدث لأن صوت الصرخات بدأ يتعالى لنا حتى ونحن فى هذا الموضع البعيد .. صرخات نساء .. أطفال .. رجال .. ثم بدأ صوت الانفجارات والطلقات بينما السماء تتوهج بذلك النور المخيف .. لايمكن أن يكون هناك ركن واحد مظلم فى المخيمين الآن ..

ضحكت ضحكة خافتة فنظر لى (شارون) وتساءل :

ـ «لم تضحك ؟ »

قلت إن ابن عرس تسلل إلى بيت الدجاج فى دارنا ذات مرة .. فى مستوطنة (حارنوف) .. لم نعرف بهذا إلا حين سمعنا صراخ الدجاج المذعور وارتطامه بجوانب بيته الخشبى .. لقد تذكرت المنظر الآن ..

ترى ماذا يفعله ابن عرس الآن ؟

ضحك (شارون) طويلاً .. لقد انتعش وعاد إلى وجهه شبابه .. هذا الرجل لايستعيد حيويته إلا حينما يسمع الطلقات والصراخ ويشم رائحة البارود والدماء .. ظل واقفا ساعة أخرى يصغى ثم أعلن أنه سيعود ليظفر ببعض الراحة .. أعرف أن هذه من أسعد ليالى حياته ..

استغرقت العملية 36 ساعة ..

وفيما بعد عرفنا الأرقام المبهرة .. لقد هلك فى الـ 36 ساعة 3500 فلسطينى .. أى أن معدل القتل كان ألف فلسطينى فى الساعة ! وهو ما لم نتصوره حتى هذه اللحظة ..

فيما بعد عرفنا أن رجال الكتائب لم يخيبوا ظننا فيهم ، فقد اقتحموا كل بيت وذبحوا كل طفل واغتصبوا كل امرأة قبل قتلها .. أما الرضع فقد طوحوهم من القدمين من أعلى البيوت ، وقد تسلوا ببتر بعض الأطراف .. إلخ .. المهم أن شوارع المخيمين تحولت إلى كومة عالية من الأجساد ..

وقد فر بعض الأطفال إلى مستشفى (غزة) فى مخيم (شاتيلا) وأبلغوا الصحافة الأجنبية ..

جاء الصحفيون الأجانب صباح الجمعة فلم يستطيعوا الدخول إلا صباح السبت .. نحن منعناهم لأننا أغلقنا أبواب المعسكرين فلم نسمح بالدخول أو الخروج .. دعوا ابن عرس مع الدجاج يا سادة .. إنهما متفاهمان ..

لقد استمر مرح رجال الكتائب حتى ظهر السبت ..

وحين دخل الصحفيون الأجانب المكان أصابهم الذهول والهلع .. كانت الرائحة لا تطاق .. ومن الصعب أن تمشى فى موضع دون أن تطأ جثة أو تقع عينك على مشهد يزور كوابيسك إلى الأبد ..

غضب العالم علينا !

انقلب العالم علينا !

مئات التصريحات فى الصحف ونشرات الأخبار .. غضبة عارمة .. ثم بعد هذا يأتون إلينا ويخطبون ودنا .. إنها حقائق القوة على الأرض .. الضعيف لا ينال إلا بعض التعاطف ثم ينساه الجميع ، بينما القوى على حق دائمًا ..

لقد اعتدنا هذا .. غضب واتهامات ، ثم لا يحدث شىء وسرعان ما ينسى الجميع الأمر .. ألم أقل لك إننا فوق القانون ؟ من الغريب أن هؤلاء الناس ينسون إننا لم نتغير .. هذا هو منهجنا الثابت طيلة الوقت .. نهاجم (كفر قاسم) فينسون (دير ياسين) .. نهاجم (قانا) فينسون (صابرا وشاتيلا) .. هكذا ..

لو كان (شارون) جنرالاً فى (زائير) أو (السلفادور) لقضى حياته خلف القضبان أو أعدم كمجرم حرب ..

لكنك تتحدث عن (إسرائيل) ..

فى إسرائيل كان هناك بعض دعاة السلام الذين ثاروا .. لا أعرف نفع هؤلاء ولا جدواهم .. لو كانوا لا يحبون ما نقوم به فلماذا لا يرحلون ؟

المهم أن هذه الضوضاء أدت إلى محاكمة (شارون) .. وقد اضطر للاستقالة من الجيش مع تغريمه عشرة قروش بحكم صارم من المحكمة .. بالإضافة إلى التوبيخ .. وقد ضايقه هذا كثيرًا .. تخيل توبيخ شخص مثل (شارون) ! تخيل توبيخ بلدوزر مندفع لا يسمع ولا يعى !

* * *

ليلة السبت دخلت على (شارون) فى غرفته فوجدته راقدًا على الفراش بثيابه الداخلية ـ قطعة واحدة منها فى الواقع ـ وهو يحتضن زجاجة (ويسكى) .. هذا فعل مشين خاصة فى يوم (السابات Sabbath) المقدس عندنا .. لكن من قال إن (شارون) يهودى متدين ؟ بنفس المنظر ـ الثياب الداخلية والزجاجة والفراش ـ قابل كبار صحفيى العالم يوم نفذ عملية (الغزالة) فى حرب 1973 .. تلك التى اصطلح المصريون على تسميتها (ثغرة الدفرسوار) . ليلتها حاولت جاهدًا أن يلبس ويبدو محترمًا أمام الصحفيين ، لكنه سبنى ببذاءة أمامهم وأصر على أن يظل كما هو ..

كان ثملاً بالنصر وثملاً بالخمر .. لذا كان يتكلم بعينين مغمضتين وهو يلهث ..

هرش فى صدره المكتنز ، وقال لى :

- « هل تعرف قصة الحاخام والخنزير ؟ »

قلت له :

- « لا .. »

- « لأنك حمار يا (إيثان) .. »

ثم راح ينظر للسقف وأخذ جرعة كبيرة من الزجاجة .. وشهق وقال :

- « إنه ذلك اليهودى الذى كان يعانى لأن بيته ضيق كريه .. ذهب للحاخام يشكو إليه ، فقال له الحاخام : سأحل مشكلتك غدًا .. فى اليوم التالى جاءه الحاخام بخنزير ضخم كريه الرائحة وأمره بأن يضعه معه فى البيت .. دهش الرجل لكنه كان مضطرًا لأن يطيع .. هكذا عاد لداره بالخنزير .. مرت أيام والرجل فى جحيم .. البيت صار أضيق .. قذارة الخنزير فى كل مكان .. الرائحة لاتطاق .. هكذا بعد شهر هرع إلى الحاخام يتوسل إليه أن يأخذ الخنزير .. جاء الحاخام وأخذ الخنزير فى اليوم التالى وقال لليهودى : الآن ستجد كم كانت حياتك رائعة ! بيتك صار أوسع ورائحته أنظف وحياتك أسعد .. »

فكرت قليلاً ، ثم قلت وأنا أقف جوار الفراش :

ـ «قصة رائعة .. لكنى لم أفهم ما تريد قوله .. »

هرش (شارون) فخذه الشبيهة بفخذ الثور وقال :

ـ «ضع العرب فى موضع هذا اليهودى .. ولنكن نحن الخنزير ! يطالبون بـ (أورشاليم) خذ منهم سيناء والجولان .. هكذا يصير هدفهم فى الحياة استرداد هذين .. يطالبون بطردنا عندها ابن مستوطنة هنا أو هناك .. سوف تنحصر مشاكلهم فى هدم هذه المستوطنة .. يريدون مكافحتنا عندئذ اغز لبنان وحاصر بيروت .. هكذا تصير مشكلتهم هى جلاؤنا من لبنان .. ألم تسمع هذه القصة قط يا ابن الـ .... ؟ »

كررت من جديد أننى لم أسمعها من قبل ..

قال وهو يضع قدمه الكبيرة فى وجهى :

ـ «يا لك من (حلوف) .. ألم تذهب للمدرسة قط ؟ هذه القصة هى مفتاح السياسة الإسرائيلية كلها .. قبل أن يتكلم خصمك عن اللكمة التى وجهتها له فى عينه ، وجه له ركلة فى ساقه .. وقبل أن يتكلم عن ركلة ساقه اصفعه .. لا تتركهم يتكلمون عن حدود 1948 وتقسيم (برنادوت Bernadotte) بل اجعلهم يتحدثون عن حدود 1967 .. اجعلهم يناقشون حدود أمس .. »

ثم غلبته الخمر فراح فى نعاس عميق ..

بطنه العظيم يعلو ويهبط ..

نظرت له وقلت لنفسى : برغم كل شىء نحن محظوظون لأن هذا البلدوزر الآدمى لدينا .. لو كان لديهم هم لكانت كارثة !

* * *

10 ـ قصاصات : (فيجى) و (كيبور) وأشياء أخرى ..

الثامن عشر من سبتمبر عام 1992 :

لبنان من جديد !

كانت منظمة التحرير الفلسطينية شوكة فى جانبنا .. ثم ظهر لنا حزب الله فى لبنان ..

لماذا لا يستسلم هؤلاء العرب ؟ لماذا لا يستسلمون ؟ هم يعرفون أننا نريد السلام .. فقط السلام الذى نحدده نحن .. السلام الذى لا تصير لهم فيه حقوق من أى نوع ..

إننا أقوياء جداً .. أقوياء إلى حد لا يصدق .. لكن البندقية الآلية لا تصلح للتصدى للدغ النحل .. تستطيع النحلة أن تلدغك وتدميك حتى لو كنت تطلق الرصاص فى كل اتجاه من أحدث سلاح فى العالم ..

هكذا قمت ورفاقى بهذه المجموعة من الطلعات على الجنوب اللبنانى .. كنا نقصف كل شىء وأى شىء ..

اليوم قمنا بواحدة من هذه الطلعات ..

لقد تكرر هذا الموقف كثيراً على كل حال .. نحن نعرف

ما ننوى قصفه .. لاتوجد أوهام ولاسوء فهم .. والقيادة تؤكد أن علينا أن نقوم بما خرجنا للقيام به .. سلفى كان يركب طائرة (فانتوم) عتيقة نوعًا حين اتجه لينسف الطائرة الليبية التى نعرف جميعًا أنها مسالمة مدنية .. وسلفى فعل الشىء ذاته وهو ذاهب ليقصف مدرسة ابتدائية للأطفال يعرف تمامًا أنها مدرسة ابتدائية للأطفال ..

انتقلت الرسالة عبر خطوط اللاسلكى ..

لقد حاول بعض الأهالى الفرار من القصف فلم يستطيعوا ..

ثم صاح صائح منهم أن المكان الوحيد الآمن هو ملجأ كتيبة (فيجى Fiji) .. هذه الكتيبة جزء من قوات حفظ السلام للأمم المتحدة فى قرية (قانا) اللبنانية ..

هكذا هرعت أعداد كبيرة من الأطفال والنساء والشيوخ إلى ملجأ الكتيبة باعتباره المكان الوحيد الذى يعرفون يقينًا أننا لن نقصفه ..

حسن .. لم يكونوا محقين إلى هذا الحد ..

لقد أمرنا (شمعون بيريز) بأن نقصف الملجأ ..

فهمت أسبابه .. أولاً : كل رئيس وزراء فى إسرائيل يحتاج إلى مجزرة ما تدعم نفوذه السياسى .. ثانيًا : نحب من وقت

لآخر أن نشد أذن الأمم المتحدة لنعلمها أنه لاتوجد لدينا خطوط حمراء ، وأنها لاتستطيع حماية من نريد قتله ..

انحدرت بالطائرة ثم وجهت صاروخي الأول إلى الملجأ ، وارتفعت بينما اندلعت ألسنة اللهب ..

إن أسلحتنا اليوم تختلف عما كنا نستعمله فى السبعينات فوق بحر البقر .. لابد أن الدمار مروع داخل الملجأ ولابد أن درجة الحرارة صهرت الأجساد بالداخل ..

وبينما أنا أرتفع كان زميلى فى السرب ينحدر ليوجه ضربته التالية ..

استغرق الأمر دقائق لكنها كانت كافية ، وعرفنا فيما بعد أننا قتلنا 160 لاجئًا من الأطفال والنساء اجتمعوا بالملجأ .. وخرج تقرير الأمم المتحدة يؤكد أننا قصفنا الملجأ عمدًا وبدم بارد ، كنا نعرف يقينًا أنه تابع للأمم المتحدة ..

حسن .. لقد صار هذا مملاً .. سوف يديننا العالم ويلطم الخدين ، ثم يقدم له أحدهم لفافة تبغ فيأخذها شاكرًا وينسى الموضوع .. ونحن بدورنا نقدم الورقة المطبوعة من قبل التى استعملناها ألف مرة : حدث خطأ نعتذر عنه .. أو: رجال المقاومة الفلسطينية هم المسئولون لأنهم يحتمون

بالتجمعات السكانية ويطلقون علينا من هناك مما يعرض حياة المدنيين للخ... إلخ .. إلخ .. إلخ ..

لا أحد يصدق هذا .. نحن نعرف أنهم يعرفون أننا نكذب .. وهم يعرفون أننا نعرف أنهم يعرفون أننا نكذب ..

ثم ماذا ؟ ماذا يستطيعون عمله ؟

★ ★ ★

يونيو 1967 ... العريش ..

الصحراء من جديد ..

تبًا للصحراء ! كم أمقت هذا الحر .. هذا هو ما شعر به أسلافى عندما خرجوا من مصر مع (موسى) ..

الأسرى المصريون يقفون صفًا .. لا أعرف كيف يتحمل هؤلاء القوم هذا الجو .. لا يستطيعون أن يرفعوا أيديهم ليحجبوا الشمس أو يبعدوا نبلب الصحراء ، إنهم فى هذا الموقف منذ ساعات .. لكنى لا أرى المشهد كما هو .. أراهم مجموعة من الجنود الفراعنة يقفون أمامنا نحن أتباع (موسى) .. لقد هزمناهم أخيرًا ..

كانت مشكلتنا أن عددهم يتزايد .. في كل مكان نجد المزيد منهم .. لقد كان اجتياحنا لسيناء سريعًا كالبرق .. أسرع من خطوط إمداداتنا ، وهو ما يذكرني باندفاع (روميل) عبر الشمال الإفريقي أيام الحرب العالمية الثانية ..

لقد دمرنا مطاراتهم وخطوط اتصالاتهم وسرعان ما صار ذلك الجيش عبارة عن مجموعات متفرقة من الأفراد الجائعين الذين يقتلهم الظمأ والإرهاق ..

كيف ننقلهم ؟ كيف نطعمهم ؟

من أين نأتي بالجنود الكافين لحراستهم ؟ لا يوجد عدد كاف لهذه المهمة .. إن أمامنا مهامًا أكثر أهمية ..

جاء (شارون) عند الظهر وهو يركب سيارة (جيب) . وكان من الواضح أن الحر أنهكه فعلاً ..

سألته عن حل لهذه المشكلة ، فقال بلا تردد :

- « اقتلهم طبعًا .. إن رصاصة واحدة ستريح عنا الكثير من الأعباء .. لدى أوامر عليا تسمح بذلك !! »

فكرت في الأمر عدة مرات .. حقًا لن تكون هذه المرة الأولى ، لكنني ارتجفت للتفكير في حجم المذبحة التي سنقوم بها .. هذه المرة يفوق العدد أية مرة قتلنا فيها الأسرى ..

كان يشعر بملل حقيقى وقد أراح فخذه على حاجز السيارة وأمر السائق بأن يتحرك .. فقط قال لى وهو يبتعد :

ـ « عندما أرجع لا أريد أن أرى هؤلاء .. »

هكذا كان علينا أن نبدأ الروتين المعتاد ، كل أسير يحفر قبره أمامه .. كانوا مرهقين لهذا لم يبد على أحدهم الذعر أو القلق .. كأنما مهمتهم هى حفر القبور لا أكثر ولا أقل .. وكأن متاعبهم تنتهى فور الفراغ من هذا ..

أوقفتهم صفًا .. ناديت جنودى وأمرتهم بأن يتأهبوا لإطلاق النار ..

استعد ..

اضرب ..

أطلقوا النار على هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هكذا تمّ هذا الإعدام الجماعى فى صحراء سيناء وسرعان ما كنا نهيل الرمال على الجثث ..

وفى أكثر من مكان من سيناء تكرر المشهد نفسه ..

وأثارت دهشتى بساطة هذا الحل .. فعلاً رصاصة واحدة تنهى هذا الضجيج .. فلا حراسة ولا طعام ولا مأوى ..

على أننا نسينا شيئاً بسيطاً ..

(ليبرتى Liberty) !

* * *

أنا (رعنان ليفى) توليت الهجوم على السفينة الأمريكية (ليبرتى) ..

كانت واقفة هناك خارج المياه الإقليمية تراقب كل شىء وتسجل كل شىء .. وقد لحسنا صنعنا حين أغرقناها لأن عدداً من رجالها رأوا مشهد إعدامنا لستين من الأسرى المصريين .. عرفنا هذا فيما بعد .. لم نكن نريد شهوداً من أى نوع ، وكان من الغريب أن تتواجد سفينة تجسس أمريكية تراقب كل شىء ..

المصريون أيضاً كانوا مرتبكين بصدد هذه السفينة .. حسبوها تساعدنا فى عملياتنا .. الحقيقة أنها لم تفعل إلا المراقبة .. وقد تعلمت الكثير من أساليبنا .. مثلاً الطريقة التى كنا نعترض بها الإشارات اللاسلكية الموجهة من مصر إلى الأردن .. نغير محتواها ، ثم نعيد إرسالها .. هذا الأسلوب أذهل الأمريكان لأنهم لم يعرفوه من قبل ..

وهكذا كان علينا أن نلقن هؤلاء القوم درسًا قاسيًا .. لا أحد يتجسس علينا حتى لو كان الولايات المتحدة نفسها ..

وصدرت لنا الأوامر بإغراق السفينة .. خرجت مع ثلاثة من رفاقى نحوها ..

رأتنا نحوم حولها فأصدرت إشارة بالراديو تقول إنهم أمريكيون ، ورفعوا العلم الأمريكى واضحًا لكن حكم الإعدام كان قد صدر .. لهذا انخفضت بطائرتى ، ثم أطلقت نحوها طوربيدًا ..

لابد أنهم كانوا يصرخون هلعًا وهم يحترقون .. لابد أن القبطان كان يردد « نحن أمريكان ياحمقى ، لسنا مصريين ! »

فكنا نضحك فى سرنا ونقول : « نعرف ذلك ! »

وتواصلت الهجمات حتى غرقت السفينة تمامًا فلم يبق منها إلا رجال يسبحون فى عوامات فوق سطح الماء .. هكذا عدنا لقاعدتنا راضين ..

وجاءت طائرة هليوكوبتر إسرائيلية تحوم حول الحطام وعلى سبيل الاستفزاز سألهم قائدها بمكبر الصوت :

ـ « هل تريدون شيئًا ؟ »

هنا تعالى السباب البذىء .. وهتف قبطان (ليبرتى) الذى يتمسك بقطعة خشب فى البحر :

ـ « أيها القتلة !! »

بعد قليل مرت بالمكان سفينة سوفيتية فسألت الغرقى عما إذا كان بوسعها أن تنتشلهم ..

لكن القبطان لم يرد ـ من ناحية الكبرياء ـ أن ينجو بسفينة سوفيتية ، لذا قال إنهم شاكرون .. لا يريدون عونًا من أحد ! إلا أن السفينة السوفيتية قالت :

ـ « على كل حال نحن لن نرحل .. سنظل هنا بجواركم إلى أن يتم إنقاذكم ! »

فيما بعد حاول الحمقى من طاقم (ليبرتى) أن يستفزوا الحكومة الأمريكية علينا .. قالوا إنها عملية قتل متعمدة .. قالوا إن هوية (ليبرتى) كانت واضحة ولا مجال للخطأ .. لكن (جونسون) الرئيس الأمريكي وقتها قبل اعتذار إسرائيل فى سماحة وأطرى شجاعتها فى الاعتراف بخطئها .. قال إن إسرائيل حسبتها سفينة مصرية ومن هنا كان الخطأ ..

وسرًا تلقى الطاقم أمرًا بألا يتكلمون عن الموضوع أكثر من اللازم وإلا ....

فيما بعد ستكتب عشرات الكتب عن حادثة (ليبرتى) لشهرها (من يجرؤ على الكلام ؟) لكن القصة تتكرر .. إسرائيل فوق المساءلة أو اللوم ..

هناك قانون لكل الجوييم (الأغيار) وقانون خاص لإسرائيل ..

يجب أن يتعلم العالم هذا .....

* * *

وكان رئيس الوزراء (ليفى أشكول) يجلس إلى مكتبه متوترًا ..

أمامه وقف الجنرالات فى الجيش الإسرائيلى .. وأولهم (موشى ديان) صاحب النصر الساحق ..

قال (ديان) وهو ينظر له بعينه الوحيدة الزرقاء الباردة :

ـ « اسمع يا (ليفى) .. إن اللحظة تاريخية وأنت لا تبدو الرجل المؤهل لها .. سوف نجتاح الجولان والضفة الغربية الآن .. »

قال لنا وهو يبتلع ريقه :

ـ « لقد كانت معركتنا مع مصر وها نحن أولاء قد استولينا على سيناء ودمرنا جيشها .. ما دخل الأردن فى الموضوع ؟ »

قال الجنرالات بصوت واحد :

- «إذا لم توافق سنفعل ذلك على كل حال .. سنبدأ الاجتياح حالاً .. »

شعر (أشكول) بالخطر .. الأمر يفلت من يده ليتحول إلى ما يشبه انقلابًا عسكريًا .. كان يؤمن دومًا بأن العسكريين في إسرائيل يملكون قوة مخيفة وأنهم استولوا على الدولة .. وللمرة الأولى شعر بأنه ضعيف فعلاً ..

لقد ربت إسرائيل هذا الوحش ليحميها والنتيجة أنه افترسها .. كل شيء في هذا البلد .. كل حجر .. كل زهرة لها رائحة البارود والحرب ..

وهكذا لم يجد ما يقول ..

ابتسم (ديان) واندفع خارجًا من المكتب ومن خلفه الجنرالات الآخرون ..

* * *

أكتوبر 1973 :

الطائرات تنطلق فوق الرءوس ..

لكنها هذه المرة لا تتجه من الشرق إلى الغرب .. إنها متجهة

من الغـرب إلى الشرق ! لم نر هـذا المشــهد مـن قبل حتى حسبناه غير ممكن ! الانفجارات تدوى فترتج لها الأرض ..

قال لى الضابط الذى جاء معى :

- «يقصفون (أم مرجم) ومركز الاتصالات الرئيسى لنـا فى (رمانة) ! »

المصريون والسوريون يهاجمون !

يا للكارثة ! لكننا سوف نلقنهم درسًا قاسيًا .. يهاجموننـا فـى (يوم كيبور Kebor) أقدس أعيادنـا ؟ هـؤلاء القـوم لا يحترمون شيئًا .. وإن كـان هذا لا يخلو مـن ذكـاء لأن الدولة كلها معطلة فى هذا اليوم ..

أنا المهندس (مائير عزرا) الذى أحضروه كى يصلح أنابيب النابالم بسرعة .. هناك مشكلة على ضفـة القنـاة لأن المصريين ينزلون قواربهم وينقضون .. حاول جنودنـا فتـح أنـابيب النابـالم لتشتعل القناة ، لكن قطرة لم تنزل منهـا .. مـا معنـى هذا ؟ هذا الجزء شديد الأهمية فى خطة حماية القنــاة .. تحويلهـا إلـى بحر من نار يلتهم هؤلاء ..

استدعونى على وجه العجلة فجريت إلى الخزان الرئيسى ..

جثوت على ركبتى فوق الرمال ورحت أفتش عن موطن الخلل ..

يا للمصيبة ! الخراطيم مقطوعة كلها .. وقد تم هذا بسلاح حاد ..

الأدهى أن الأجزاء المقطوعة تم سدها بمادة تشبه الأسمنت .. لن يكون إصلاح هذا سهلاً .. متى فعل هؤلاء الشياطين هذا ؟ لابد أنهم تسللوا إلى هنا منذ أيام وتأكدوا من هذه النقطة ..

رفعت رأسى لأخبر الضابط بما وجدته فلم أجده .. كانت البندقية المصوبة إلى رأسى فى يد جندى مصرى !

كُنت على أن أكون من أوائل الأسرى ..

* * *

أكتوبر 1973 :

أصدرت لنا (جولدا مائير) الأمر الذى توقعناه والذى كنا نخشاه ..

أمرت بتركيب الرءوس النووية على الصواريخ الموجهة إلى مصر ..

معنى هذا أن كل شىء قد ضاع .. إنها النهاية كما تراها هى .. كنا نعرف أن السلاح النووى هو الخطوة الأخيرة قبل أن تفنى إسرائيل ، ولهذا أطلق (بن جوريون) على المشروع النووى كله اسم (ميكرع هاكول) .. أى (قبل ضياع كل شىء) ..

ولكن لو أطلقنا الصواريخ النووية هل ستكون بمأمن من الإشعاعات ؟

★ ★ ★

لاحرب من دون مصر .. لاسلام من دون سوريا .. هكذا قال كبار مفكرينا ..

★ ★ ★

أكتوبر 1973 :

أسقط المصريون طائرتى وأسرونى ..

أسلمنى لهم مجموعة من الفلاحين رأوا مظلتى تهبط فى حقل قريب .. إنهم يستعملون الفئوس ببراعة كما هو واضح ..

بعد الاستجوابات المعهودة التى لم أعط فيها أية معلومات سوى رتبتى وفصيلتى ، طلبوا منى أن أقابل أحد القادة المهمين لديهم ..

دخلت إلى غرفة صغيرة ، ثم جاءنى هذا القائد ليجلس أمامى .. شعرت بأنه يريد إجابة عن سؤال حيره كثيرًا ..

قال لى عن طريق المترجم :

- «لن أدخل فى تفاصيل .. لقد كنت موجودًا على الأرض فى أثناء الغارة التى قمتم بها على مطار المنصورة ، وبلا أية مبالغة عددت عشرة أخطاء قاتلة قام بها تشكيلكم .. كنتم أبرع من هذا فى حرب 1967 .. ماذا حدث لكم ؟ هل تغيرتم ؟ »

فى كبرياء قلت :

- «سيدى .. نحن لم نتغير ومازلنا بذات الكفاءة .. أنتم الذين تغيرتم ! »

فيما بعد عرفت أن هذا القائد الكبير هو قائد سلاح الطيران المصرى ذاته .. إنه لواء يدعى (حسنى مبارك)(*) ..

* * *

(*) واقعة حقيقية كأى شيء ذكر فى هذا الكتيب ..

11 ـ قصاصات : وما زلنا نتحرك ..

الرابع عشر من أكتوبر عام 1953 :

هل تعرف (قبية) ؟ إنها قرية فلسطينية ما تقع شرق أورشليم .. إحم .. لنقل إنها كانت كذلك .. لاذنب لها إلا كما قلنا إنها تواجدت فى المكان والزمان الخطأ .. كنا بحاجة إلى عبرة أخرى ..

لهذا هاجمناها .. اقتحمناها بعدد يبلغ نحو خمسمائة جندى ..

ورحنا نطلق النار على هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

أطلقنا الكثير جداً من الرصاص على أى شخص يتحرك .. ثم أغلقنا البيوت على سكانها ونسفناها .. يبدو أن العملية استغرقت ثلاثين ساعة على الأقل ..

الحصيلة هى مصرع 67 فلسطينيًا .. هناك مئات الجرحى .. لاتكلمنى عن عدد الأطفال والنساء من فضلك حتى لا تكون مملاً .. نحن لا ننتقى .. لو كان كل أهل القرية رجالاً لفعلنا ذلك .. ولو كانوا كلهم أطفالاً لفعلنا هذا .. نحن لا نستهدف الأطفال لكننا ـ كذلك ـ لا نعتبرهم محصنين ..

* * *

الجمعة 13 يونيه عام 1980 :

سمع د . (يحيى المشد) طرقات على الباب فى فندقه بباريس فاتجه ليفتح الباب ..

ما لا يعرفه الفرنسيون .. ما لا يعرفه الكثيرون أن هذا الرجل النحيل أصلع الرأس الذى تذكرك ملامحه بملامح أب وديع أو موظف .. هذا الرجل هو السلاح السرى رقم واحد للعرب .. إنه العقل الذى يعرف سر القنبلة الذرية .. ويستطيع عمل واحدة ، بل إنه فى فرنسا لهذا الغرض ..

وما لا يعرفه كثيرون هو أن المفاعل العراقى الذى يتم تشييده بخبرات هذا الرجل سيكون جاهزًا فى وقت قريب .. بضعة أعوام لا تعنى شيئًا فى حياة الأمم ..

أقول إن د. (يحيى) سمع قرعات على الباب فاتجه ليفتحه ..

لن أفهم هؤلاء العرب أبدًا ..

أخطر رجل فى العالم العربى هنا وحيدًا فى غرفته .. لا توجد حراسة . لا يوجد جهاز مخابرات كامل يراقبه .. لو كنا فى مكان العرب لوجدت الدبابات تحيط بالفندق .

إنه يتجه لفتح الباب كما قلت ..

فلنتركه يفتح الباب من فضلكم ولا تضايقوه ..

★ ★ ★

يونيو 1981 :

(التويثة) 20 كيلومترًا جنوب شرق بغداد ..

اسمى (إيلاى رامون) .. أنا بطل قومى إسرائيلى لكنى اليوم أسطورة إغريقية ..

بعد ما انتهيت من قصف المفاعل العراقى درت حوله مرتين لأتأكد من أن الضربة كانت قاتلة .. وكان زملائى يناورون للقيام بالمزيد من الضربات ..

سحابة سوداء كثيفة تتعالى فى السماء ..

أعترف أن (بيجين) يتخذ القرارات الصائبة دومًا .. الخطر أن يمتلك العرب القدرة النووية ، وبالتالى يتلاشى تفوقنا العسكرى المخيف .. ولو تم إنشاء هذا المفاعل وصنعوا القنبلة الذرية فلسوف تمتلك كل دولة عربية صواريخها النووية الموجهة إلينا .. لهذا أطلق على العملية اسم (السلام فى الجليل) ..

بقى علينا الآن أن نرجع .. ويا لها من رحلة مريعة تبلغ أربعة آلاف كيلومتر ! لأننا نتبع طريقًا صعبًا ملتويًا ..

فيما بعد سوف أشارك فى اجتياح لبنان ..

وفيما بعد سوف ألقى حتفى عام 2003 .. نعم .. سأكون أول رائد فضاء إسرائيلى ، ولسوف ألقى حتفى عندما ينفجر المكوك الأمريكى (كولومبيا) .. وسوف تهوى أشلائى فوق بلدة أمريكية اسمها (فلسطين) !

هل لهذا معنى ما ؟ لو أردت أن تجد معنى فهذا شأنك .. أما أنا فلا أعرف إلا أننا انتهينا من خطر المفاعل العراقى ، وقتلنا العقل الذى كان يدبر له .. وفيما بعد سأصير أنا أسطورة فى تاريخ إسرائيل باعتبارى أول (شهيد) فضاء إسرائيلى ..

فلنعد إذن ..

★ ★ ★

كانت مصرة على الوقوف ..

أتقدم .. الديناصور المعدنى المتوحش يهدر على الأرض والأرض ترتفع ..

لا بد أنها ستتراجع ..

تقف ببذلتها الحمراء فى تحد .. الأرض ترتفع من تحتها ويبدوا أنها ستفقد توازنها فى أية لحظة ..

أنا لن أتراجع يا صغيرة .. أمريكية أو غير أمريكية .. يجب أن تعرفى أن إرادتى كهذا البلدوزر .. بل هى أقوى منه .. هى التى تحركه ..

اسمك (راشيل كورى) .. أمريكية .. واضح من اسمك أنك يهودية كذلك لكنك من هؤلاء اليهود الحمقى الذين لايعترفون بأرض الميعاد .. قيل لنا إنك تحبين الفلسطينيين .. تأكلين معهم وتلاعبين أطفالهم .. وتنامين في بيوتهم الضيقة الرطبة .. قيل لنا إنهم يحبونك وإنهم سيشيعونك فى جنازة رمزية ..

حسناء أنت صغيرة السن .. من الخسارة أن تموتى .. ألا تفهمين هذا يا حمقاء ؟ ربما فى ظروف أخرى كنت

ستجلسين جوارى فى هذا البلدوزر وتريحين رأسك الأشقر على كتفى ..

لكن الحرب هى الحرب .. يجب أن أهدم هـذه المجموعة من المنازل ..

أنت تتعثرين .. تقعين على الأرض ..

الجرافة تضرب رأسك .. أنا آسف ..

برغم كل شـىء أعترف أن فـى قتلك شيئًا مـن النشـوة السادية هو ما نشعر به عند هدم شىء جميل ..

أصدقاؤك من الناشطين يحاولون أن ينقذوك .. لكـن هذا سخف .. حتى من هنا أرى أن رأسك لم يعد رأسًا ..

لقد انتهى أمرك يا (راشيل) هنا .. فى رفح ..

لو كنت تعتقدين بأن الدنيا ستقوم ولـن تقعد بسبب مصرعك هنا ، فأنت مخطئة .. سـوف يتحـدث أبـواك فـى مـرارة فـى وسائل الإعلام ، وسوف يتكلم الفلسطينيون عنك دامعين ..

ثم ينتهى الأمر ..

* * *

الأب يخفى ابنه ـ الذى عرفنا فيما بعد أنه (محمد الدرة) ـ خلف ظهره ويصيح بنا .. يطالبنا بأن نتوقف ..

إن العدسات تصور المشهد .. يتخيل أننا لن نطلق الرصاص عليه لمجرد أنه يريد ذلك ..

يتخيل أننا لن نجرؤ ما دام مصور القناة الخامسة الفرنسية يصوب عدساته علينا ..

يتخيل أننا لا نطلق الرصاص على الأطفال ..

يتخيل ويتخيل ..

حسن .. الحقيقة أن توقعاته لم تكن دقيقة جدًا ..

* * *

الاثنين : الثامن من أكتوبر 1990 :

سوف يذكر الفلسطينيون ما نقوم به اليوم باسم (مذبحة الحرم القدسى) ـ وسوف يضيفونه إلى قوائمهم التى تضم كل ما قمنا به . والتى يتوقعون أن نعاقب عليها يومًا ما ..

القصة تتكرر دائمًا .. إذا أردت استفزاز العرب فتحرش بهيكل (سليمان) .. أقصد تحرش بالمسجد الأقصى الخاص بهم .. هنا ينقضون عليك وقد غلت دماؤهم .. عندئذ يمكنك أن تطلق الرصاص كما تريد .. هذا حقك ..

لقد حاول بعض رجالنا المتدينون وضع حجر الأساس للهيكل الثالث فى ساحة مسجد هؤلاء .. هكذا هب العرب ثائرين وكادوا يفتكون بأمناء جبل الهيكل ..

هكذا كان المبرر وأصدرت أوامرى لرجال الجيش بأن يطلقوا الرصاص على المتظاهرين بلا تمييز .. من الجميل أن ترى كيف تطلق الطلقات نحو زحام .. هذا يشبه صيد السمك من برميل .. لا بد من أن تصيب الطلقة كائنًا حيًا ..

أطلقوا النار على هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

فى هذا اليوم هلك 21 فلسطينيًا وإننى لمندهش لحظ هؤلاء القوم .. لقد قدرت أن يموت مائتان على الأقل ..

هناك مائتا جريح .. كما اعتقلنا الكثيرين ..

صحيح أننا استمتعنا بوقتنا لكن الحجر لم يوضع برغم هذا ..

عام 1967 عندما دخلنا أورشليم طلب أحد الحاخامات من (عوزى) القائد الإسرائيلى أن ينسف قبة الصخرة .. هذا هو الوقت المناسب ليدخل التاريخ وكى تنتهى مطالبات المسلمين بهذا المكان ..

قال (عوزى) الذى كان علمانيًا يعتبر ما يقوله الحاخامات هراء :

- « بعد إذنك .. أنا أعتبر نفسى دخلت التاريخ فعلاً بدخول أورشليم .. أما نسف هذه القبة فأمر سيجلب علينا الويل .. »

هتف الحاخام غير مصدق :

- « أى ويل ؟ من يجرؤ على معارضتنا الآن ؟ »

- « هناك دول إسلامية صديقة لنا .. هناك تركيا وإيران وباكستان (فى ذلك الوقت) .. وسوف تنقلب علينا لو فعلنا شيئًا كهذا .. »

هكذا انصرف الحاخام وهو يسب ويلعن ..

اليوم أفكر .. وأعتقد أنه كان على حق ..

لقد كان (عوزى) أحمق ..

* * *

12 ـ قصاصات : وما زلنا نتحرك ..

العشرون من مايو 1990 :

شالوم ..

اسمى هو (عامى بوبر) ..

ربما لاتذكر أسمى . إذن فاعلم أننى فعلت ما فعلته قبل (باروخ جولدشتاين) الذى قتل خمسين (منهم) فى (هبرون) .. ربما كنت أنا المُلهم الحقيقى له لكن التاريخ لا يذكرنى .. فقط هؤلاء الذين رأوا ذلك اليوم المجيد لن ينسونى أبدًا ..

(عيون قارة) .. هل تعرفها ؟

إنها قريبة جدًا من (تل أبيب) .. وعليها كان يتردد العمال العرب الذين يعانون الفقر فى بيوتهم ، من ثم كانوا يضطرون إلى العمل عندنا مقابل شيكلات لا تسد رمقًا .. لا أفهم كيف يعيشون بهذه الملاليم لكنهم يعيشون وتنمو أجسادهم ويتناسلون ..

لم أخبر أحدًا بما أنويه .. فقط كنت أقف قرب إحدى نقاط المراقبة ، حين خطر لى أن هذه هى النهاية .. لم أعد أطيق

رؤية العرب بعد اليوم .. سأفعل أى شىء ولو كان فى هذا نهايتى ..

كان عامل عربى يحمل قصته من القرميد ، فاتجهت إليه وأشرت إلى الجدار القريب ..

بالعربية التى أجيدها .. كلنا نتكلمها فى الواقع .. قلت له :

ـ « اتجه إلى هناك .. »

هتف فى دهشة :

ـ « لم أفعل شيئاً »

ـ « هذا إجراء روتينى .. أريد أوراقك .. »

هكذا اتجه إلى هناك وهو يضرب كفاً بكف وما إلى ذلك من إيماءات الدهشة لدى العرب .

اتجهت إلى آخر وهو عجوز يضع الغطرة الفلسطينية المألوفة ، وطلبت منه أن يقف مع الآخر .. احتج قليلاً ثم صدع بالأمر .. هكذا جمعت سبعة من هؤلاء كانوا يريدون دخول الخط الأخضر وأوقفتهم جوار الجدار .. كانوا يعتقدون أنها مجرد سماجة عابرة منى ، وقد لوحوا بأوراقهم يريدون أن يثبتوا أنها قانونية ..

بلا تردد وقفت أمامهم .. نزعت بندقيتى الآلية من على كتفى ..

ضغطت الزناد ..

ورحت أطلق النار على هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

هذه الأجساد ..

لابد أنهم لم يعرفوا أنهم ماتوا ..

* * *

إسرائيل تتشكل ..

نحن نغدو أقوى ..

* * *

مذبحة ناصر الدين .. فى 13 أبريل عام 1948 ..

استقبلنا الأهالى حاسبين أننا عرب مثلهم .. هكذا أخرجنا الخناجر وقمنا بذبح الجميع ..

مذبحة الدوايمة .. في 29 أكتوبر عام 1948 ..

بقيادة (موشى ديان) هاجمنا تلك القرية قرب (هبرون) .. (الخليل) كما يسميها العرب .. قتلنا 96 عربيًا كما ابتكر (ديان) تلك التقنية الجميلة لقتل الأطفال : أمسك بالطفل من قدميه ثم اضرب رأسه في الجدار ..

مذبحة اللد في 12 يوليو عام 1948 ..

ذبحنا 486 منهم احتموا بمسجد القرية .. مشكلة هؤلاء القوم أنهم يعتقدون أن المسجد يحميهم من اقتحامنا ..

مذبحة بيت داريس في 21 مايو عام 1948 ..

هنا كانت إبادة كاملة بالدبابات لتلك القرية قرب (غزة) ..

* * *

الأساطير تنتشر عنا بين العرب ..

نحن نزداد قوة ..

الفلسطينيون يفرون من بلادهم ..

* * *

مذبحة صفصف فى الجليل :

هنا تقنية جديدة فريدة .. ربط الرجال من أقدامهم بالحبال ، ثم تدليتهم فى البئر .. نطلق الرصاص على كل امرأة مذعورة تحاول الاقتراب من الحبل الذى يعلق رجلها .. بعد عشر دقائق كان سبعون منهم قد ماتوا ..

السادس من يوليو 1938 :

فجرنا سيارتين مفخختين فى سوق حيفا .. مما أدى إلى قتل 21 عربيًا .. وعدد الجرح كان ضعفى هذا ..

بعد هذا بأسبوع ألقى أحدنا قنبلة على المصلين الخارجين من أحد مساجد (القـ.......) أورشليم بعد صلاة الجمعة ..

* * *

هؤلاء الفلسطينيون الأشرار !

يفجر أحدهم نفسه فى سوق مزدحم فى أورشليم ليقتل عشرات الإسرائيليين ..

ما زلت لا أفهم هؤلاء القوم .. كيف يمكن للمرء أن يبلغ هذه الدرجة من القسوة ؟!!!

* * *

مذبحة (تل جنان) فى 31 ديسمبر عام 1947 :

قبل هذه العملية كان العرب يطلقون عليها اسم (بلدة الشيخ) .. طبعًا الاسم الجديد أكثر جمالاً .. احتجنا كى يتركها العرب ونغير اسمها إلى نبح 600 من أهلها !

مذبحة قرية ميلبون ..

مذبحة كفر قاسم ..

مذبحة البعنة ودير الأسد ..

مذبحة خان يونس ..

مذبحة ....

....

* * *

13 ـ قصاصات : وما زلنا نتحرك ..

لا تصالح !

ولو منحوك الذهب ..

أترى حين أفقأ عينيك ثم أثبت جوهرتين مكانهما ..

هل ترى ؟

هى أشياء لا تشترى ..

أمل دنقل

* * *

يجب أن أصف موقفى بصراحة ..

كنت أعرف من أنا .. أنا (علاء عبد العظيم) الطبيب المصرى .. لكنى فى الوقت ذاته كنت أتلقى هذا السيل الرهيب من الذكريات .. وكنت أعيش فيه طيلة الوقت . بالفعل بدأ جزء منى يفكر ويشعر كيهودى .. وأدركت أن هذا الصراع المخيف فى عقلى نجم عن الالتحام بين كيانى العربى وبين ذلك الكيان الصهيونى الذى تسلل إلى ..

كان سيل هائل من الرؤى يتدفق إلى عقلي .. أرى الرومان وأرى النازيين في شوارع (وارسو) وأسمع صرخات الأطفال في (دير ياسين) .. والأشنع أن جزءًا مني كان يتعذب لهم وجزءًا آخر كان منتشيًا مما يحدث !

هكذا رحت أبحث عن مخرج ..

من آن لآخر كنت أفيق لأدرك أنني راقد على مقعد طبيب الأسنان .. مقعد القرابين الوثنية هذا .. وأن مكبر الصوت بجواري ويبدو أنني كنت أتكلم بالعربية شارحًا ما أراه وما أعيشه ..

كأنها جلسة تحضير أرواح وأنا الوسيط .. لكنها في هذه المرة تتم بالتكنولوجيا الحديثة .. تحولت إلى (جولدشتاين) و(شارون) و(عمواس ماتير) و ......

وعرف أن علي أن أفعل شيئًا ..

يجب أن أحشد إرادتي لأرسل لهذا الوغد رسالة كاملة لا تشتبه عليه ..

أعرف أنه يعانى ما أعانيه .. الآن يزدحم رأسه بتراث عربى من الألم والعذاب .. وصراع حميم فى داخله بين الرضا والاشمئزاز .. بين الغضب والسرور ..

هكذا رحت أركز إرادتى .. أركز .. أركز ..

سأفكر فى تراث الكراهية .. سأفكر فى الاشمئزاز .. سأفكر فيما أحمله له من مقت ..

هذا التراث موجود بداخلى .. إنه قادر على أن ينتقل إليه ..

ومن بين شفتى راحت مقاطع من قصيدة (أمل دنقل) الشهيرة تتردد :

« لا تصالح على الدم حتى بدم !

لا تصالح ولو قيل رأس براس !

أكل الرءوس سواء ؟

أقلب الغريب كقلب أخيك ؟

أعيناه عينا أخيك ؟

وهل تتساوى يد سيفها كان لك ..

بيد سيفها أثكلك ؟!!!! »

هذا المقت يمكن أن يشتعل .. يمكن أن يحرق .. كم كان عمري حين سمعت عن مذبحة (قانا) ؟ كم كان عمري حين سمعت عن (صبرا وشاتيلا) .. كيف بكيت من العجز .. كيف تمنيت لو تحول غضبي إلى نار تنطلق كنيزك إلى أجواز الفضاء ثم تهوي فوقهم ..

منذ ولدت وأنتم في حياتي ككابوس .. متى تنتهون ؟ متى ؟

وأردد أبيات القصيدة :

«لا تصالح ..

ولو قيل ما قيل من كلمات السلام ..

كيف تستنشق رئتاك النسيم المدنس ؟

كيف تنظر في عيني امرأة أنت تعرف أنك لن تستطيع حمايتها ؟

كيف تصبح فارسها في الغرام ؟

كيف ترجو غداً لوليد ينام ..

وهو يكبر بين يديك بقلب منكس ؟

لا تصالح ..

ولا تقتسم مع من قتلوك الطعام .. »

سوف تصله الرسالة كاملة .. سوف تصله ..

العرق ينبت على جبينى .. يداى تتقلصان على مسندى المقعد .. بطنى تتقوس لأعلى وكل عضلة تنقبض بإيقاعها الخاص ..

«كل شيء تحطم فى نزوة فاجرة ..

والذى اغتالنى ليس ربا .. ليقتلنى بمشيئته ..

ليس أنبل منى ليقتلنى بسكينته ..

ليس أمهر منى ليقتلنى باستدارته الماكرة ..

لا تصالح ..

فما المصالحة إلا معاهدة بين ندين

(فى شرف القلب لا تنتقص)

والذى اغتالنى محض لص ..

سرق الأرض من بين عينى

والصمت يطلق ضحكته الساخرة .. »

الهولندى يهتف ، وهو يراقب مؤشراته :

ـ «ماذا يحدث هنا ؟ هناك شيء غريب ! »

رائحة شياط لا شك فيها ..

ثمة شيء يحترق .. هل أنا أم هو ؟

لايهم .. لا يهم .. إننى الآن الغضب الساطع الذى تكلمت عنه (فيروز) ..

من كل طريق .. آت ..

بجياد الرهبة .. آت ..

وكوجه الله الغامر .. آت .. آت .. آت ..

لن يقفل باب مدينتنا فانا ذاهبة لاصلى ..

وستغسل يا نهر الأردن وجهى بمياه قدسية ..

وستمحو يا نهر الأردن آثار الغضب الهمجية ..

(بارتلييه) يهـزنى فى هستيريا .. وقد بدا على وجهه هلع حقيقى لا شك فيه :

ـ « ماذا تفعل يا (علاء) ! توقف ! »

فجأة صوت صراخ مريع يتعـالى مـن الحجـرة الأخـرى فتهرع الممرضة والسكرتيرة .. ثم تعودان صارختين :

ـ « كف عن هذا ! أنت تقتله ! »

(بارتلييه) يضرب وجهى بكفه :

ـ « توقف يا (علاء) .. أرجوك ! »

« لا تصالح

فليس سوى أن تريد ..

أنت فارس هذا الزمان الوحيد ..

وسواك المسوخ .. »

ثم الهولندى ينتزع الأقطاب وهو يصرخ :

ـ « انزعوا القابس .. سأجهض التجربة ! »

والسكرتيرة تصرخ :

ـ « إن الجهاز هناك يشتعل ! »

قال فى غضب مجنون :

ـ « أعرف ! قلت لك أن تخرسى وتنزعى القوابس .. »

عشرات الأسلاك تتحرر وتلقى على الأرض ..

أنا ألهث .. كل عضلاتى تتقلص ..

فى النهاية أخرج الهولندى أمبولاً صغيرًا وملأ به المحقن ، ثم أفرغه فى ذراعى ..

هنا فقط توقفت الحرب التى تدور فى جوانب عقلى ..

وتحول المشهد الدامى إلى ظلام عميق ...

« لا تصالح !

ولو منحوك الذهب ..

أترى حين أفقأ عينيك ثم أثبت جوهرتين مكانهما ..

هل ترى ؟

هى أشياء لا تشترى .. »

* * *

14 ـ لمـــــاذا ..

« لماذا ينبغى للعرب التوصل إلى السلام ؟ لو قدر لى أن أكون زعيمًا عربيًا لما تصالحت مع إسرائيل علـى الإطلاق هذا أمر طبيعى .. نحن قد استولينا علـى بلادهـم وهـم لايعنيهم فى شىء أن الله وعدنا بها ؛ لأن دينهم غير ديننـا ، لقد كانت هناك معاداة للسـامية ومعسكرات اعتقـال نازيـة . ولكن ذلك ليس ذنبهم .. هم لا يرون إلا شيئًا واحدًا هو أننـا جئنا إلى هنا وسرقنا بلادهم فلماذا ينبغى عليهـم قبول هـذه الحقيقة ؟! »

ديفيد بن جوريون مؤسس إسرائيل

* * *

قضيت ثلاثة أيام فى الفراش منهكًا ..

كانت التجربة قاسية عنيفة .. لم يخطر لـى هذا ببـال .. وقد اخترت أن أقضى هذه الأيام فى دارى ، لكن (بارتلييه) والهولندى جاءا يطمئنان علىّ ، وهو شرف كبير لأن المدير لا يخرج من الوحدة إلا جثة ، وهذا لا يحدث كثيرًا علـى كل حال ..

جلس (بيتر ترامب) البروفسور الهولندى الذى اتضح لى أنه عبقرى بالفعل .. تفحص حدقتى وفحص جهازى العصبى بدقة .. وجه بضع ضربات بالمطرقة إلى أوتارى ووخزنى ألف مرة بدبوس مدبب .. ثم وجه لى بعض أسئلة من ورقة يحملها ..

فى النهاية قال وهو يحك رأسه :

ـ « لا توجد توابع لهذه التجربة .. مجرد إرهاق .. »

قلت وأنا أعتدل فى الفراش وأضبط وضع الوسادة :

ـ « مجرد إرهاق كالذى تشعر به الحجارة بعد خروجها من خلاط أسمنت .. لقد كان الضغط العصبى مروعًا .. كدت أجن .. »

ثم سألته فى حذر :

ـ « الحقيقة أننى لم أفهم حتى هذه اللحظة ما حدث فعلاً .. »

كان (بارتلبيه) يجلس بصعوبة على طرف المقعد .. إن هذه المقاعد متينة فعلاً .. كل شيء فيه يترجرج .. وقد أخرج بعض الأقراص وراح يبتلعها .. إننى قلق على هذا الرجل .. إنه يزداد بدانة وإرهاقًا .. لا أعرف كيف أتحمل (سافارى) من دونه .. ربما يأتى (شيلبى) من بعده لكنه ليس أكبر الموجودين ..

لكن لا .. سأطرح هذه الأفكار السوداء عنى الآن ..

قال (بارتلبيه) وهو يرشف كوبًا من الماء :

- «كان هناك تيار أعلى من اللازم انطلق من ناحيتك .. تسرب إلى الجهاز الرئيسى ، وتسرب إلى (ليفى) .. كان ما وجدناه هو أن (ليفى) دخل فى نوبة تشنج مريعة .. ثم إن الأسلاك المتصلة به اشتعلت .. فعلاً اشتعلت .. وقد احترق جزء من جلد رأسه العارى لكنه سليم .. »

قال (ترامب) فى شرود :

ـ « الحقيقة أننا لو لم نسرع لاحترق حيًا .. »

قلت فى سخرية مريرة :

ـ «مثلما يزعم أنه حدث لأجداده .. لو كان صادقًا فهو معتاد هذا على كل حال .. بالمناسبة .. رأيت كل أصناف الذكريات لدى هؤلاء القوم ، لكنى لم أر وجهًا واحدًا فى فرن .. المفترض أن تحتل هذه الأفران جزءًا عزيزًا من ذكرياته .. هل لديك تفسير ؟ »

تجاهل (ترمب) ملحوظتى واستطرد :

ـ « هذه الطاقة المروعة قد أتلفت النظام بالكامل .. علىّ أن أبدأ من جديد .. لكن لا يمكن أن نصفها بأنها كانت تجربة فاشلة .. »

ـ «كانت ناجحة أكثر من اللازم .. سأوقع لك أية شهادة تطلبها .. »

ابتسم وربت على ركبتى من فوق الملاءة ، ثم أعلن أنه عائد إلى الوحدة .. قال (بارتلبيه) إنه سيبقى معى بعض الوقت ..

لم تكن (برنادت) فى البيت .. فهى مشغولة بعملها فى (سافارى) .. لهذا كان لدينا كل الوقت كى نثرثر أنا و(بارتلييه) بعد رحيل الهولندى ..

ساد الصمت بعض الوقت ، ثم سألته :

- «لماذا ؟»

- «لماذا أى شىء بالضبط ؟»

- «لماذا اخترتم (ليفى) لهذه التجربة ؟ كان بوسعكم اختيار أى واحد فى الوحدة .. أنتم تعرفون أن علاقتى المثلى به هى ألا توجد علاقة .. هل كان يعرف ؟»

قال (بارتلييه) فى صدق :

- «بالطبع لا .. قلت لك إنها تجربة ثنائية التعمية .. لو عرفت أنه هو لو عرف أنك أنت لتدخلت الخبرات السابقة فى تشكيل الرؤى ، أما والحال كذا فقد هبطت الصور على عقلية بكر .. »

- «لم تجب عن سؤالى .. لماذا هو ؟»

حك رأسه فى ارتباك .. وجفف قطرة عرق نبتت على جبينه وقال :

ـ « الواقع أنها كانت فكرتى .. خطر لى أنه لو تبادلتما التراث الجمعى ، فلربما خلقتا نقطة تفاهم مشتركة .. إن ما بينكما هو سنوات من سوء الفهم .. لو عرفت كيف يفكر ولو عرف كيف تفكر لتلاشى هذا الحاجز .. »

نظرت فى عينيه ، وقلت بثبات :

ـ « هل ترى الحاجز قد زال ؟ »

ـ « خطر لى أن هذا ممكن .. أنت رأيت لاشعوره الجمعى .. عرفت لماذا يفعل ما يفعله .. »

انفجرت فى الضحك حتى شعرت كأن كل عظمة من عظامى تسافر فى اتجاه ... ولما استطعت أن ألتقط أنفاسى أخيرًا قلت :

ـ « أى لا شعور جمعى ؟ هل سمعت الشريط ؟ »

ـ « جعلنا صاحبك التونسى (بسام) يترجمه لنا إلى الفرنسية .. »

- «أى تراث إذن ؟ أى وجدان جمعى ؟ هل سمعت عن (أبو زعبوطا ؟ »

بدا عليه الغباء كما هو متوقع .. طبعًا لم يسمع عنها .. فقلت :

- « إنها قرية كبيرة أو مركز فى وطنى .. فى شبابى اضطررت لدخول دورة مياه عمومية فى (أبو زعبوط) .. حسن .. تذكرت هذا الآن لعدة أسباب .. أنا لم أر فى وجدان هذا الفتى إلا مرحاضًا عموميًا بعد أن انقطعت المياه عنه شهرين .. هذا الفتى لا يملك ذكريات إلا مجموعة من المذابح والعقد النفسية .. لا يملك فى ذهنه إلا (أبو زعبوط) .. »

ابتسم فى تحفظ ولم يقل شيئًا ..

عدت أسأل :

- «ما التراث الذى أخذه منى ؟ »

هز رأسه وقال :

ـ «لست في حل من التعليق على ذلك .. كما اتفقنا يحق لك مقاضاتنا لو عرفت أننا قمنا بتسريب أسرارك .. نفس الشيء ينطبق عليه .. أعتقد أن قيام د. (بو غطاس) بالترجمة لا يضايقك كثيرًا .. على كل حال من الجلي أن لا شعورك الجمعي قد عذب د. (ليفي) كثيرًا .. »

قلت في غيظ :

ـ «أي عذاب ؟ لم يعرف عنا يومًا أننا أسأنا معاملتهم .. في كل تاريخ العرب كان طبيب الخليفة يهوديًا دائمًا .. وربما وزيره كذلك .. لقد عاملناهم كما ينبغي أن يكون ، عاملتهم أوروبا بغلظة تصل إلى درجة التوحش .. ثم قررت أوروبا التخلص منهم فأرسلتهم إلينا .. هذه المجموعة من الأفاعي السامة لم تجد لها أوروبا مكانًا إلا في حديقة داري .. »

ثم أضفت وقد تذكرت :

ـ «لم أر أية ذكرى للمحرقة (هولوكوست Holocaust .. هل تتصور هذا ؟ المفترض أن تحتل أهم موقع من ذكرياته .. »

فكر قليلاً ، ثم قال وهو ينظر خلفه :

- «أسمع يا (علاء) .. ليس من المفترض أن أقول هذا .. إن منصبى لا يسمح لى بهذا ، وخاصة أن هؤلاء القوم يرفضون انتقادهم بأية صورة إنهم يتهمون أوروبا بمعاداة السامية طيلة الوقت ولو عرف أحد أننى قلت ما قلته فسوف يكلفنى هذا منصبى .. »

- «كل من يلومهم على ذبح الأطفال هو معاد للسامية بالنسبة لهم .. فى رأيهم ليس أمام الفلسطينى إلا لعبة واحدة يلعبها هى أن ينقرض فى هدوء وصمت .. »

نظر حوله من جديد كأنما هو يتوقع أن يجد (شارون) يقف خلفه .. ثم قال :

- «لماذا يا (علاء) ؟ »

نظرت له فى حيرة وانتظرت تفسيرًا .. فعاد يسأل :

- «لماذا ؟ »

ـ « لماذا تركتموهم يفعلون بكم كل هذا ؟ أنتم أمة عريقة قدمت الكثير .. لديكم إمكانيات اقتصادية هائلة وتعدادكم مخيف .. كيف ارتضيتم أن تتحولوا إلى .. إلى هذا ؟ »

انفجرت ضحكًا .. للمرة الثانية تغلبنى نوبة الضحك الهستيرى هذه ..

قلت وأنا أستجمع أنفاسى :

ـ « تريد منى أن أشرح لك ما كتبت مجلدات عنه ؟ على كل حال لن أقضى الوقت فى اتهامكم معشر الغربيين ببذل كل ما فى وسعكم كى تظل إسرائيل جاثمة على صدورنا .. ثمة جزء لا بأس به جاء منا نحن .. لدينا شاعر اسمه (نزار قبانى) يقول :

ـ « لم يدخل اليهود من حدودنا ، ولكن تسللوا كالنمل من عيوبنا .. »

ـ « هل توضح أكثر ؟ »

شهقت بعمق وقلت :

– « الفرقة .. انعدام الإرادة .. الولع بالقول لا بالفعل .. حينما زار (كيسنجر) المنطقة العربية للمرة الأولى لم يكن يعرف حرفًا عن العرب .. هكذا طلب من أحد أساتذة الجامعات الأمريكيين أن يعطيه ملخصًا فى صفحة واحدة لكيفية التفاوض مع الشخصية العربية .. أعد له الأستاذ تقريرًا عرف باسم (السوق والخيمة) .. وقد هام (كيسنجر) حبًا بهذا التقرير وحمله معه فى حقيبته فى كل رحلاته المكوكية .. يقول التقرير أن التعامل مع العرب يتم بطريقة السوق الشرقى أو البازار Bazar .. سيقسمون أغلظ القسم وربما يصل الأمر إلى البكاء لكنك تثبت على موقفك وتصر .. وفى النهاية يتم البيع بسعر أقل مما أرادوه لكن يظل الجميع سعداء .. أما نظرية الخيمة فتقول إنك سترى زحامًا وضوضاء .. عليك أن تجد شيخ القبيلة .. اتجه إليه ولا تضيع وقتًا مع الآخرين .. امدحه واكسب ثقته .. عندها ستكون كلمته هى النافذة .. »

ابتسم (بارتلييه) لهذا .. إنه غربى يفتنه أى كلام عن الخيام والأسواق الشرقية ..

قال لى :

ـ « لا أطالبكم بالحرب .. لكن هناك حلولاً حضارية تجدى دائمًا .. مثلاً المقاطعة الاقتصادية .. ماذا عنها .. »

قلت فى إرهاق :

ـ « عندما تتفق الكلمة على أهمية المقاطعة يبرز لك ألف صوت يقول إنك بهذا تهدم اقتصادنا ذاته ، وأن هذا لن يؤثر فيهم بل فينا .. إلخ .. ويكتب فى الموضوع أضعاف ما كتب عن مذبحة الحرم الإبراهيمى .. لابد من الجدل .. لابد من ضوضاء كثيرة فى الخيمة أو البازار .. لابد من العباقرة الذين يبرهنون للمتحمسين على أنهم حمقى ، ولو برز هؤلاء العباقرة لـ (غاندى) لظلت إنجلترا فى الهند فترة أطول بكثير .. »

قال ضاحكًا من سذاجتى :

ـ « الإنجليز لم يخرجوا من الهند بسبب امتناع الهنود عن شراء الملح والصوف .. »

ـ «أعرف .. مثلما لن تتخلى أمريكا عن إسرائيل لأننا قاطعنا البضائع الأمريكية .. لكنها صرخة احتجاج تقول إنك لست معدوم الإرادة إلى الحد الذى يحسبونه .. تقول إنك غاضب فعلاً .. تقول إنك لست بهذا الضعف .. ثم يعود الواحد من هؤلاء المنادين بـ (ألا جدوى هنالك) لداره شاعرًا بأنه عبقرى وأنه متميز فامتاز .. النتيجة : لاشىء يحدث على الإطلاق .. الفلسطينيون فقط عرفوا أنه لاجدوى من إضاعة الوقت ، وأن هناك حلاً واحدًا اسمه المقاومة .. إنهم يسطرون ملحمة حقيقية ، ولو كان خصمهم غير الإسرائيليين لكتب العالم كفاحهم على النجوم بأقلام من ذهب .. إنهم قد تفوقوا على (ستالينجراد) و(فيتنام) وكل ملاحم الصمود التى تعرفونها .. لكن لا أحد يشعر بهذا لأنكم ترتجفون رعبًا من لفظة (معاداة السامية) ولأن ضميركم يعذبكم فعلاً .. أنتم أسأتم معاملة اليهود فقررتم الصمت عندما بدءوا يذبحون الآخرين .. »

وأغمضت عينى .. لم أتكلم بهذا القدر من الوقاحة منذ ولدت على ما أذكر ..

لا أعرف كيف بدا له الأمر .. أعتقد أنه غفر لى هذه الوقاحة غير المتعمدة .. لأنى غبت فى نعاس عميق ..

لا أعرف متى اتصرف ..

فقط شعرت بلمسة يد (برنادت) الباردة الحبيبة حينما عادت من العمل ..

* * *

كان (ليفى) يرتجف بدوره ..

لقد عرف شيئين .. عرف فظاعة ما قاموا به لأنه عاينه من منظور عربى هذه المرة ..

وعرف مدى المقت الذى أحمله له .. مقت يجعله غير آمن على نفسه فى أى مكان وأى زمن ..

وقد أزمع أمرًا ..

ما هو هذا الأمر ؟ للأسف هذا خارج نطاق عملى هنا فى (سافارى) ..

د. علاء عبد العظيم

أنجاوانديرى

تمت بحمد الله

سافارى

مغامرات طبيب شاب يجاهد

لكى يظل حيا ولكى يظل طبيبا





تجربة فريدة هى .. كان القدماء يتحدثون عن النكرومانسى Necromancy أو (استجواب الموتى) .. وهى طريقة شنيعة تجعلك ترى ما رأوه ، وتسمع ما سمعوه ، وتعرف ما عرفوه .. اليوم نحن نفعل هذا بطريقة علمية بحتة .. ولن نجرب على الموتى لكننا سننتزع أسرار الوجدان الجمعى للأحياء ..



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم

الحادث

الثمن فى مصر ٢٥٠ قـ
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



مطابع

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع